

أشكال حضور المدينة في رواية (مسرى الغرائيق في مدن العقيق) لـ: أميمة الخميس

Forms of city presence in a novel (Masra Al-Gharaniq in the cities of Al-Aqeeq) for Omaina Al-Khamis

د. حمدة بنت خلف العنزي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، السعودية

hkmalanazi@imamu.edu.sa

Dr. Hamdah Khalaf Alanazi, Mohammed Bin Saud Islamic University, Riyadh, Saudi Arabia

hkmalanazi@imamu.edu.sa

المؤلف المرسل:

د. حمدة بنت خلف العنزي

Dr: Hamdah Khalaf Alanazi

hkmalanazi@imamu.edu.sa

ملخص: هدفت هذه الدراسة إلى تتبع أشكال حضور المدينة سردياً في رواية (مسرى الغرائيق في مدن العقيق) للروائية السعودية أميمة الخميس انطلاقاً من فرضية سيولوجية ترى أنّ هذه المدن هي الفضاء الذي يحوي أحداث الرواية ويشكلها بما يمثلها من بنية محورية في تشكيل بنية السرد الكبرى، التي لا يمكننا تصوّر حكايتها دون فحص هذه الجهة سيولوجياً؛ بوصفها مكوناً محورياً يمثل دوراً فاعلاً في البنية الشكلية والموضوعاتية في هذه الرواية المتأثرة في بعض خصائصها بـ(أدب الرحلات). وقد اعتمدت الدراسة على منهج بنوي، وتم تقسيمها وفق محورين؛ يعالج أولهما الفضاء المادي للمدينة، ويتناول المحور الثاني الفضاء المعنوي لها وتوصلت إلى أن نصوص أدب الرحلات أحد أهمّ الفنون السردية المتجذرة في أدبنا العربي، إذ تمثل ما يشبه الوثائق التاريخية والجغرافية والإثنوغرافية للبلدان التي يمرّ بها الرحالة/ بطل الرواية؛ ويستهدف، في جوهره، تقديم وصف للمدن وصورولوجيا للبلدان التي ينتقل خلالها السارد/ الرحالة بوصفٍ يقدم على طريقة التجاور والتتابع؛ لا التوزيع داخل بنية السرد. وتوصي الدراسة بالاهتمام بمزيد من الدراسات التي تهتمّ بالبنية السردية لنصوص أدب الرحلات، ولا سيما المعاصرة؛ لما فيها من اختلافات، تميّزها عن غيرها في البنى السردية.

كلمات مفتاحية: البناء السردية، الرواية المعاصرة، سيولوجيا المكان، الفضاء المادي، الفضاء المعنوي.

Abstract:

The aim of this study aimed to follow the forms of the presence of the city narratively in the novel "Masra al-Gharaniq in the cities of al-Aqeeq" by the Saudi novelist Omaina Al Khamis, based on a psychological hypothesis that considers these cities as the space, which contains and forms the events of the novel with its central structure in the formation of the major narrative structure that we cannot imagine without studying this side sociologically, as a central component that represents an active role in the formal structure and objectivity of this novel, which is influenced by (travel literature) in some of its characteristics. The study relies on a semiotic-structural approach, according to two axes, the first of which addresses the physical space of a city, The second axis deals with the moral space of the city and the invisible descriptions. The study concluded that the texts of travel literature - especially in contemporary fiction - are one of the most important narrative arts whose origins, deep roots in our Arabic literature, as well as their purely literary value, constitute similar historical, geographical and ethnographic documents on the countries through which the travelers/heroes of the novel travel; this art aims mainly to present a description and images for the cities in which the narrator/traveller travels through them, by the way of juxtaposition and continuity that do not spread in the narrative structure. The study recommends that more studies be considered in the narrative structure of the texts of travel literature texts, especially contemporary narrative texts, should be further investigated for their differences that distinguish them from others in narrative structure.

Keywords: Contemporary Novel, Moral Space, Narrative Construction, Physical Space, Place Psychology.

1: مُقَدِّمَةٌ

تُعَدُّ رَوَايَةُ (مَسْرَى الْغَرَانِيقِ فِي مَدُنِ الْعَقِيقِ) لِلأَدِيبَةِ السُّعُودِيَّةِ أُمَيْمَةَ الْخَمِيسِ الْحَائِزَةِ عَلَى جَائِزَةِ نَجِيبٍ مَحْفُوظٍ عَامَ 2018م - مِنْ أَبْرَزِ الرِّوَايَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ الْمُتَأَثِّرَةِ بِمَا يُسَمَّى (أَدَبُ الرِّحَالَاتِ). وَقَدْ اتَّخَذْتُ مِنْ سِيرَةِ بَطْلَانِهَا (مَزِيدِ الْحَنْفِيِّ) الَّذِي انْطَلَقَ مِنْ مَنَاطِقِ الْيَمَامَةِ فِي وَسْطِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَنَقَّلَ بَيْنَ الْبُلْدَانِ هُنَاكَ شَغُوفًا بِالسُّؤَالِ وَبِخَاصَّةِ سَوْأِ الْمَعْرِفَةِ، وَتَوَقَّفَ بُرْهَةً فِي بَغْدَادَ؛ وَيَصِفُ لَنَا فِي أَثْنَاءِ رِحْلَتِهِ كُلَّ مَا يَمُرُّ بِهِ مِنْ بِلَادٍ، وَخِلَالَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ يَجْمَعُ الْكُتُبَ، وَيَعْرِضُ لِعَادَاتِ سُكَّانِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَطَبَائِعِهِمْ، وَثَقَافَتِهِمْ، وَتَقَالِيدِهِمْ، وَخَصَائِصِهِمْ، وَتَكْوِينَهُمُ الدِّينِيَّ، وَالْاجْتِمَاعِيَّ.

يَهْدَفُ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى تَسْلِيْطِ الضُّوْءِ عَلَى كَيْفِيَّةِ أَشْكَالِ حُضُورِ الْمَدِينَةِ، وَصُورِ هَذَا الْحُضُورِ فِي الرِّوَايَةِ الَّتِي حَازَتْ اِهْتِمَامًا إِيْجَابِيًّا لَدَى كَثِيرٍ مِنَ النُّقَادِ وَالرَّوَائِيْنَ لِأَهْمِيَّتِهَا، وَتَشْغِيلِهَا فِي إِبْرَازِ فَنِّ أَدَبِيٍّ هَجِينٍ إِنْجَاسِيًّا ظَهَرَ جَلِيًّا فِي أَحْدَاثِهَا التَّصْوِيرِيَّةِ لِلْمَدُنِ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي الرِّوَايَةِ، فِي أَثْنَاءِ تَنَاوُلِهَا سِيرَةَ مَزِيدِ الْحَنْفِيِّ مِنْذُ بَدَأَ رِحْلَتَهُ الْمَعْرِفِيَّةَ مِنْ وَسْطِ

الجَزيرة العَرَبِيَّة بِشَوْقٍ نَحْوِ بُلْدَانٍ تَزَامَنْتْ مَعَ حُكْمِ العَبَّاسِيِّينَ بَعْدَادَ، وَالْفَاطِمِيِّينَ الْقَاهِرَةَ، وَالْفَصَائِلِ الْمُتَنَاحِرَةِ إِسْبَانِيَا هَاوِيًا شَعُوقًا بِالسُّوَالِ وَالْمَعْرِفَةِ، مُتَوَقِّفًا فِي بَعْدَادَ عَاصِمَةِ الْفِكْرِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالثَّقَافَةِ، وَدُرَّةَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَقَتْنَدُ.

0- تَمْهِيدٌ

1/0- الرِّوَايَةُ بَيْنَ أَدَبِ الرَّحَلَاتِ وَالْإِشْكَالِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ

يَرَى مُنْظَرُو النُّوعِ الْأَدَبِيِّ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ فَهْمَ النَّصِّ، وَتَفْكِيكِهِ، وَتَرْكِيبِهِ، عَبْرَ نَظَرِيَّةِ النُّوعِ الْأَدَبِيِّ إِلَّا بِالْوُقُوفِ عَلَى طَبِيعَةِ هَذَا النَّصِّ، وَمَدَى انْزِيَاغِهِ عَنِ مَعَايِيرِهِ (1). فَقَدْ عَدَّ عُلَمَاءُ الْجَمَاعَةِ أَدَبَ الرَّحَلَةِ مِنَ الدِّرَاسَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لَمَّا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ تَحْلِيلَاتٍ وَسُوسْيُوغَرَفِيَّةٍ، إِنْثُوغَرَفِيَّةٍ، وَتَفْسِيرَاتٍ لِلْعَلَاقَاتِ الْمُتَنَبِّسَةِ بَيْنَ الْأَنَا وَالْآخَرِ (2)، وَقَدْ يَضِيفُونَ الْأَدَبِيَّ الْأَنْثَرُولُوجِيَّ، مَعَ إِشَارَاتٍ إِلَى كَوْنِهِ لَا يَخْلُو مِنْ غُلُومٍ أُخْرَى (3)؛ وَلِذَا اسْتَعَصَى عَلَى التَّصْنِيفِ؛ حَتَّى قِيلَ: "الرَّحَلَةُ هِيَ إِحْدَى الْأَشْكَالِ الْكُبْرَى الْأَمِّ لِلأَدَبِ" (4)؛ إِذَا؛ فَتَحْنُ أَمَامَ نَصِّ إِشْكَالِيٍّ هَجِينٍ (5).

وَيُمْكِنُ تَعْرِيفُ أَدَبِ الرَّحَلَاتِ بِأَنَّهُ الْأَدَبُ الْمَكْتُوبُ مِنْ وَحْيِ الْإِنْتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ؛ وَهُوَ مَجْمُوعَةُ الْأَثَارِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ انْطِبَاعَاتِ الْمُؤَلِّفِ عَنِ رَحَلَاتِهِ، فِي بِلَادٍ مُخْتَلِفَةٍ (6). وَقَدْ يَتَعَرَّضُ لَوْصَفٍ مَا يَرَاهُ مِنْ عَادَاتٍ وَسُلُوكٍ وَأَخْلَاقٍ، وَقَدْ يَسْجَلُ تَسْجِيلًا دَقِيقًا لِمَنَاطِرِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تُعْجِبُهُ، أَوْ يَسَرُّ مَرَاحِلَ رَحَلَتِهِ مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً، وَيَجْمَعُ بَيْنَ كُلِّ هَذِهِ الرُّوَى فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ؛ إِذَا عَدَّ أَدَبَ الرَّحَلَاتِ - فَضْلًا عَنْ قِيَمَتِهِ التَّرْفِيهِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ - مَصْدَرًا مُهِمًّا لِلدِّرَاسَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْإِنْثُوغَرَفِيَّةِ الْمَقَارِنَةِ/الصُّورُولُوجِيَا (7).

وَمِنْ ثَمَّ تَتَعَدَّدُ تَسْمِيَاتُهُ أَوْ مُصْطَلَحَاتُهُ، وَمَبْعُثُ هَذَا الْاِخْتِلَافِ هُوَ اِخْتِلَافُ زَوَايَا النَّظَرِ لِكَوْنِ النَّصِّ الرَّحَلِيِّ مُخَاتَلًا فِيمَا يَجْمَعُهُ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْمُشَاهِدِ، وَالْمُذَكِّرَاتِ، وَالشَّعْرِ، وَالْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْمَعَارِفِ الْمُتَنَوِّعَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَمُورُ بَيْنَ مَا هُوَ وَاقِعِيٌّ وَتَخْيِيلِيٌّ (8). وَلَيْسَ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نُحْطِيَ تَوْجُّهًا مِنْ مُخْتَلَفِ التَّوْجُّهَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمَطْرُوحَةِ فِي مُصْطَلَحَاتِهِ وَتَسْمِيَاتِهِ؛ فَالْمَسْأَلَةُ لَا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا تَعَدُّدًا فِي زَوَايَا النَّظَرِ؛ لِذَا لَا اتَّفَقَ مَعَ مَنْ نَظَرُوا إِلَى نُصُوصِ الرَّحَلَةِ بِشَكْلِ أَحَادِيٍّ؛ أَيْ يَوْصِفُهُ نَصًّا جُغْرَافِيًّا، أَوْ تَارِيخِيًّا، أَوْ اجْتِمَاعِيًّا خَالِصًا؛ فَلَا وَجُودَ لِنَصِّ نَقِيٍّ مِنَ الْعَدَمِ بَلَا مَرْجِعِيَّةٍ، بَلْ تَتَدَاخَلُ نُصُوصٌ كَثِيرَةٌ فِي نَسِيجِهِ بِالْحَوَارِ أَوْ بِالنَّصَائِصِ وَالْإِمْتِصَاصِ (9)، وَبِالتَّوَاغُلِ الْمُؤَثِّرِ الْخَلَّاقِ؛ وَهُوَ مَا يُمْكِنُنَا تَوْصِيفُهُ بِاشْتِغَالِ الْأَنْوَاعِ الْأَدَبِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي النَّصِّ الرَّحَلِيِّ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النُّقَّادِ وَالْبَاحِثِينَ، فَهَمَّا تَعَدَّدَتِ التَّسْمِيَّاتُ وَتَجَاوَرَتْ، فَإِنَّهَا تَقَعُ فِي النِّهَايَةِ عَلَى مُحِيطٍ دَلَالِيٍّ لِدَائِرَةِ أَدَبِيَّةٍ وَاسِعَةٍ تَتَّخِذُ مِنَ الْمَكُونِ الْمَكَانِيِّ خَاصَّةً مَرْكَزًا لِلْحِكَايَةِ. نَجِدُ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ التَّسْمِيَّاتِ: أَدَبَ الرَّحَلَةِ، وَأَدَبَ الْمَذَكِّرَاتِ، وَالسَّيْرِ الدَّائِيَّةِ، وَالْأَدَبَ السِّيَاحِيِّ، وَالْأَدَبَ الْجُغْرَافِيَّ، وَأَكْثَرُهَا تَدَاوَلًا أَدَبُ الرَّحَلَةِ، أَوْ الرَّحَلَاتِ (10).

ويقوم أدب الرحلة كما أشار الدكتور عبدالله حامد بعد أن عرض لمجموعة من تعريفات أدب الرحلة على عنصرين أساسيين لا يُستغنى عن أحدهما: أولهما نصّ أدبي لا يخلو من الخيال، وثانيهما رحلة واقعية؛ مما يقتضي في النهاية أن تبرز أدبيّة النصّ، وما يستلزمه من حضور تعبيريّ يَفْطُر سردًا ووصفًا وإبداعًا في اللغة والتصوير، وعلى السطح تطفو مادة رحليّة واقعيّة، حدثت بالفعل في الواقع المكانيّ لسارد الحكاية وبطلها (11).

أدب الرحلات من الفنون الأدبيّة التي شاعت لدى العرب منذ القدم، والمصريّون من أقدم الشعوب التي عرفته، بل هم أقدمها على الإطلاق؛ كما نذهب آراء كثير من الباحثين الفرنسيّين؛ فرحلات قدماء المصريّين (1403 ق.م) هي القدّمة إثنوجرافيًا (12). كما عرفته أمم أخرى؛ كالفينيقيّين والرومانيّين والإغريق، ثم جاء بعدهم الرّحالة العرب فجاؤوا الآفاق، واشتهر كثير من منهم رَحَلُوا مَشْرِقًا ومَغْرِبًا؛ كابن جُبَيْر وابن بطوطة والإدريسي وغيرهم؛ فقلّوا إلينا ما كان يَضْطَرُّبُ في العصور السّابقة، وشاهدنا من خلال رحلاتهم مُستويات الحضارة التي بلغتها تلك الشعوب تقدّمًا وتأخرًا (13).

وقد بدأ تدوين الرحلات بوصفها فنًا أدبيًا منذ القرن الثالث الهجريّ بجهود بارزة؛ كما نجد عملاً لليعقوبيّ (ت284هـ) صاحب كتاب (البلدان)، ويأتي من بعده المسعوديّ صاحب كتاب (مروج الذهب) إلى جانب أبي حامد الأنديسيّ (ت: 564هـ) في كتابه (تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب)، والبيرونيّ في كتابه (الأثار الباقية)، والإدريسيّ في كتابه (نزهة المشتاق في أخراق الآفاق) فنجدهم جامعين بين المادتين: التاريخيّة والجغرافيّة، في إطار أدبيّ فنيّ (14).

ولعلّ أحسن تمثيلٍ للاتجاه الأدبيّ رحلة محمد بن جُبَيْر (ت614هـ) المَعنونة بـ (تذكار الأخبار عن اتفاقات الأسفار)؛ حين اهتمّ بالصّياغة الأدبيّة إلى جانب المعلومات التاريخيّة والجغرافيّة، وقد نحا نحوه رَحالة كثير، أشهرهم محمد بن إبراهيم المشهور بابن بطوطة (ت776هـ) الذي يُعدّ أشهر الرّحالين شرقًا وغربًا بكتابه (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) (15).

وفي عصرنا الحديث عرّفت الرحلة الأدبيّة العربيّة خطوةً مهمّةً كانت مُعَرِّجًا حقيقيًّا؛ إذ احتكّ الرّحالة العرب بالحضارة العربيّة احتكاكًا مثل طُفْرة في مسارها؛ فقد تغيّر اتّجاه الرحلة من المشرق والمغرب إلى أوروبا، فتفاعل الرّحالة العرب مع الحضارة العربيّة، وفي مقدّمتهم رفاة الطّهطاويّ (1801-1873م)، ورحلة صديقه وزميله محمد عياد الطنطاويّ (1810-1861م) المانزة إلى روسيا المسماة "تحفة الأذكاء بأخبار بلاد روسيا؛ ولم يكن بدّعا كون رحلة رفاة الأكثر تأثيرًا في الرّحالة العرب في العصر الحديث، وقد تتلمذًا على حسن الطّطار (1766-1835م)، وكونًا صورولوجيا (Imagologie) (16) عربيّة لافتة عن أوروبا غربها وشرقها، وحفرا اسميهما في صدر أدباء نهضتنا الحديثة، لا في الأدب وحده، بل في معظم العلوم والمعارف (17) وكذا خير الدّين التونسيّ (ت1890م) الذي احتكّ بالحياة الأوروبيّة، وبخاصّة إفراغات الثورة الفرنسيّة، فاقترح الأخذ من إيجابيّاتها، مع إصراره على كون الحضارتين الأوروبيّة والعربيّة الإسلاميّة مُختلفتين (18). إلى جانب رحلات

أحمد فارس الشدياق (ت1887م) إلى مالطة وبريطانيا وفرنسا، وجمع أخبارهم في كتابين؛ هما (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) و (كشف المخبا عن فنون أوروبا)، وقد تعددت الرحلات في الوطن العربي في القرن العشرين، وتنوعت الاتجاهات، وأشهرها رحلة محمد لبيب البتوني المعروفة بالرحلة الحجازية، وللشيخ محمد رشيد رضا، وله رحلتان إلى سوريا، ولمحمد الخضر حسين رحلات كثيرة في المغرب والمشرق، وثمة رحلة محمد شريف سالم إلى أوروبا، ورحلة لأمين فكري سماها "إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا"، ورحلة محمد بلجوجة التي عنوانها "سلوك الأبرياء في مسالك باريس"، ورحلة علي أبو الفتوح و"سياحة في أوروبا"، ولأحمد زكي ورحلة بعنوان "الدنيا في باريس"، فضلا عن رحلة "علم الدين" لعلي باشا مبارك، و"جولة في ربوع أوروبا" لمحمد ثابت، وجميعها يحتاج إلى الدراسات الجادة والأبحاث المتعمدة⁽¹⁹⁾.

وقد اختلفت هذه الرحلات في القرن العشرين عما سبقها في الرحلات السابقة من حيث أهدافها واتجاهاتها، وبالتالي اختلفت في مضامينها وأساليبها وتقنيات كتابتها، وإن اتحدت في دعوتها إلى يقظة الأمة والعمل على نهوضها، ونلاحظ أيضا أنها اتجهت إلى المشرق العربي، وشرق أوروبا أيضا؛ كالرحلات إلى الاتحاد السوفيتي والصين، ولم تعد قاصرة على غرب أوروبا كسابقاتها من الرحلات⁽²⁰⁾.

2/0- مدونة الدراسة (الرواية)

تمضي بنا الرواية أميمة خميس عبر روايتها التاريخية (مسرى الغرابيق في مدن العقيق) من بغداد إلى القدس فالقاهرة، ثم تنقلنا إلى القيروان فالأندلس؛ من خلال بطلها الأعرابي المسمى (مزيد الحنفي) الذي يسافر إلى كل هذه المدن من صحراء الجزيرة ليجد نفسه بين عشية وضحاها مكلفا بمهمة جد خطيرة؛ وثمة وصايا سبع عليه أن يتناساها من بعد أن يقرأها، على أن تكون رحلته تجليات لهذه الوصايا المنسية، لكن شغفه الزائد بالكتب والمخطوطات والقراءة، ومخالفته بعض هذه الوصايا ختمت رحلته خاتمة لم يكن ليتوقعها أو ليتمنّاها.

اختارت أميمة أن تدور أحداث روايتها في فترة زمنية ممتدة هي القرن الرابع الهجري، بين أربعة أبطال رئيسية؛ هم: مزيد الحنفي، أناهيد الفارسية، عمرو القيسي، وحمدونة المريّة، كما اختارت إطارا مكانيا؛ فوقعت أحداثها بمدن العقيق في مرحلة بلغت غاية الحساسية في تاريخنا العربي الإسلامي، في زبدة الحب على حدّ تعبير الرواية⁽²¹⁾؛ إذ ينطلق مزيد الحنفي من اليمامة في قلب جزيرة العرب التي تشير بعض المصادر التاريخية إلى شيوع التسليح بها في أثناء حكم بني الأخيضر خاصة.

بدأ مزيد الحنفي قاصداً بغداد، مسكوناً -كعادة الرحالة بهواجس السؤال وقلق المعرفة، فقد توافرت له في بغداد بيئة فكرية صاخبة بالتيارات والمذاهب الفقهية؛ فقاتته الأحداث التي لم تخل من مصادفات عجيبة إلى أن أصبح مزيد عضواً في جماعة من الجماعات السرية التي تحتفي بالعقل احتفاءً خالصاً؛ بوصفه طريفاً وحيداً للحق والمعرفة، ثم غادر بغداد، كأن

الريخ تحته، وفي قلبه لواعج حبّ وصَبَابَاتُ ثَجَاءٍ إحدَى الجوّاري الفارسيّات مُتَجِّهاً إلى مدينةِ القدس كطائرٍ مائيٍّ جميلٍ/الغرُثوق، وبرفقته مجموعةٌ من الكُتُبِ الفلسفيّةِ بهدف توزيعها على بعض الأمصار الإسلاميّة، ومن ثمّ يلتقي بفُرسٍ يُدعى سمعان، كما يلتقي مع بعض المسيحيّين في القدس ممّن كابدَ الأحزان جرّاء الحريق الذي لحق بكنيسة القيامة، وهدمها، وألبث لديهم فترةً زمنيّة، اشتبك فيها مع بعض الشخصيات التي قادته إلى تكوين وعيٍ جديدٍ وقناعاتٍ مختلفة، ثمّ غادر منها مُتَجِّهاً إلى مصر التي خضعت لحكم الفاطميّين، وحاكمها المشهور بجبروته وطغيانه وتسلّطه؛ أعني الحاكم بأمر الله، الذي تسلّط على المصريّين جيئاً من الدهر، ومكثَ مزيدٌ بها ما يزيد عن عامين ونصف؛ ثمّ لا يلبث أن يفرّ مُيمِّماً الأندلسَ مارّاً بمدينة القيروان، وينزل حين إقامته بالأندلس بمنزلٍ تاجرٍ حريّرٍ ندّعى حمدونة.

1- الفضاء الماديّ ومن يحويهم: المكان والسكان

نجد أنّ بعض الباحثين قد حسّم الأمر في أنّ نصّ الرحلة أدبٌ خالصٌ ومع ذلك وجدنا أنّ روايا النظر قد تختلف بين المختصّين في العلوم النظرية المختلفة؛ فبعض الجغرافيين قد يرون أنّه لوّن من الجغرافيا الوصفية؛ لما تحويه الرحلة من أوصافٍ دقيقةٍ للعمران؛ كوصف المدن والطرق و سائر الأماكن التي يمرّ الرّحالة بها⁽²²⁾، فيصِفُ العمرانَ بمظاهره وآياته الكبرى وصلته بالسكان، والعلائق المتبادلة بينهما ليُمرّر من خلال وصفه الفضاء الماديّ للأماكن التي يزورها أهداف رحلته ورسالتَه المُبتغاة وراءها مما يحيل هذا اللون من الكتابات إلى لون جغرافي لا يدخل في أدب الرحلات .

1/1- التشكيل المكانيّ بين البعدين: الماديّ/العمرانيّ، والسرديّ

يُعدّ الفضاء المكانيّ من أهمّ محاور الأدب الرحليّ التي تُشهم في نسج بنية السرد؛ فالمكان له دورٌ كبير في التأثير على نفسيّة المجتمع والأفراد؛ لذا تعدّدت تعريفاته، ومن أهمّ هذه التعريفات أنّه جُغرافيّة العمل الفنيّ الخلّاقة؛ فإذا كانت هذه الرؤية محدّدة له لاحتوائه على أحداث الرواية باشتباكاتٍها وتعارض أفعال شخصياتها؛ فهو في الوقت ذاته جزء أصيلٌ ومكوّنٌ أساسٌ للحدث، وخاضعٌ خضوعاً كلياً له، وإن كان في جوهره وسيلةً له لا غايةً تشكيليّة، ولكنّه وسيلة فعّالة في بناء الحدث، ومشكّلة لمحتوياته، ودالّ دلالة واضحة على تاريخيّته⁽²³⁾.

ويُسمّى المكان بالثبات خلافاً للزمان المتحرّك؛ ويزداد الاهتمام به مع ثبوته لاحتوائه على المكونات الجسديّة؛ لذا يطلّ المنبع الذي تنطلق منه الشخصيات الروائيّة أو تهدف إليه، وهو الحيز الذي يكتشف عن نطم الأخلاقيات في النصّ؛ فهو الفضاء أو الفراغ المكوّن للخيال⁽²⁴⁾.

وبالنظر الواعية أو العجلى لأثر المكان في رواية "مسرى الغرائيق" يتّضح لنا أنّ الساردة قد اهتمت اهتماماً بالغاً ببنية المكان، ووصف حيّثيّته؛ فهو منذ قراءة العنوان أحد أهمّ عناصر البنية السردية الكبرى للرواية؛ فتبدأ الرواية بجملة تضعنا في عمق المكان، بل

المكان المقدس "أقصدُ مدينةَ القدس..." (25) وفي تصدير الفصل الأول يأتي وصفُها الطريق المُبسط وسطَ ممراتٍ وهضابٍ من بلدةٍ عين النمر إلى بُصرى الشام: "خَلَفْنَا بِلْدَةَ عَيْنِ النَّمْرِ، وَنَدْرَجُ غَرْبًا نَحْوَ بُصْرَى الشَّامِ، أَرْضُنَا سَهْلِيَّةٌ مَنْبَسُطَةٌ عَدَا بَعْضِ الْهَضَابِ وَمَمَرَاتِ الْأُودِيَةِ وَكُتُبَانِ الرَّمْلِ تَنْقَطِعُ وَتَعُودُ لِنَتَّصِلَ، وَيُظْهَرُ لَنَا فَجَاءٌ بَيْنَهَا قِمَمٌ صَخْرِيَّةٌ شَاهِقَةٌ مَسْنُونَةٌ كَأَنَّهَا مَرْدَةٌ مُصْطَفَوْنَ مَتَاهِبُونَ لِأَمْرِ جَلَلٍ، يَسْتَنْدِيرُ أَسْفَلَ تِلْكَ الْقِمَمِ، وَبَيْنَ مُنْحِنِيَّاتِهَا عُذْرَانٌ كَالْمَرَايَا لِامْعَةِ الْحَصَى، عَذْبَةُ الْمَاءِ، تَشْتَبِكُ أَشْجَارُ نَخِيلٍ وَطَلَحَ حَوْلَهَا، وَيَنْدَرُجُ بَيْنَ صُخُورِهَا أَسْرَابٌ مِنْ طَيْرِ الْحَجَلِ الْخَذَرَةِ" (26).

يَصِفُ السَّارِدُ هُنَا الْمَكَانَ فِي حَالِ حَرَكَةٍ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ زَاوِيَةٍ وَيَمْزِجُ حَرَكَتَهَا بِوصفٍ داخليٍّ نفسيٍّ لا في حَالِ سُكُونِهَا وَخُمُولِهَا؛ وَهُوَ حِينَ يَصِفُ طَرِيقَ سَفَرِهِ بَيْنَ الْمَدِينَتَيْنِ رَاجِلٌ مُتَحَرِّكٌ غَيْرُ سَاكِنٍ فِي طَرِيقِهِ، بَلْ يَصِفُ انْقِطَاعَهَا وَاتِّصَالَهَا (تَنْقَطِعُ وَتَعُودُ لِلاتِّصَالِ)، وَيُؤَثِّرُ

السَّارِدُ/السَّارِدَةُ الْوَاوَ لَتُظَلَّ مَسَافَاتُ الْإِتِّصَالِ وَالْإِنْفِصَالِ مَقْدَرَةً بِخَيَالِ الْقَارِئِ/الْمُتَلَقِّي؛ فَيُشَارِكُهَا فِي إِبداعِ نَصِّهَا، فَتَجِدُ حِينَ الْمَفْاجَأَةِ (يُظْهَرُ لَنَا فَجَاءٌ بَيْنَهَا قِمَمٌ)، فَوَصَفُ الْمَكَانِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَبْعَثُ فِي السَّرْدِ حَيَاةً، كَأَنَّ الرَّأْيِي/السَّارِدَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْنَا وَقْتُ الْحَدَثِ؛ إِذْ يَسْرُدُ أَوْصَافَهُ الْمَكَانِ فِي وَقْتِ رُؤْيِيهِ إِيَّاهُ، أَوْ هَكَذَا نَشْعُرُ مِنْ ذَلِكَ الْوَصْفِ الْحَيِّ النَّامِي لِلْمَكَانِ وَأَجْوَاهِهِ الْمُحِيطَةِ بِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَصْدِ السَّارِدِ أَنْ يَرَسُمَ لَوْحَةً ثَابِتَةً صَمَاءً لِلأَمَاكِينِ الَّتِي مَرَّ بِهَا فِي سَفَرَاتِهِ تِلْكَ؛ بَلْ يَأْتِي السَّرْدُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِعَادَةً مُتَجَدِّدَةً لَصُورَةِ الْحَيَاةِ فِي انْبِعَاقِهَا "قَبْلَ شُرُوقِ الشَّمْسِ يَهْبُ عَلَيْنَا هَوَاءٌ شَامِيٌّ مُتَلَجِّجٌ يَقْرُصُ أَطْرَافِي، يَمُرُّ بِشَجَرَاتِ الْعَشْرِقِ الْجَافَةِ فِي أَرْضِنَا فَتَرْتَعِشُ وَتَصْفَرُّ، وَأَنْتَظِرُ الشَّمْسَ أَنْ تَتَوَسَّطَ السَّمَاءَ لِتُذْفِقَنَا قَلِيلًا، تَحْتَ سَمَاءٍ شَدِيدَةِ الزَّرْقَةِ لَا يُفَكِّرُ حَتَّى الذَّبَابُ بِالطَّيْرَانِ فِيهَا" (27) تَجْتَمِعُ فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْمُتَتَالِيَةِ الَّتِي تَنْقُلُ حَرَكَةَ الْأَشْيَاءِ وَتَغْيِيرَهَا، وَتَحْوِلُهَا مَعَ سُنَنِ الْكُونِ، وَأُسُسِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْحِكَايَةِ السَّرْدِيَّةِ مِنْ شَخْصِيَّاتٍ تَدُورُ فِي زَمَنِ وَتَصْنَعُ أَحْدَاثًا مَا تُؤَطِّرُهَا حَرَكَةُ زَمَانِيَّةٍ.

هَذِهِ الْحَرَكَةُ الْمُتَدَفِّقَةُ مِنَ الْوَصْفِ الْحَيِّ لِلْمَكَانِ تَدْخُلُ فِي صِرَاعٍ مُحْتَدِمٍ، يَحْفَظُ لِلْسَّرْدِ حَيَاتَهُ، وَلِلْحِكَايَةِ سَيَرُورَتَهَا وَفَقَّ تَعَدُّدٍ لُغَوِيٍّ وَأَيْدِيُولُوجِيٍّ وَفِكْرِيٍّ، يَنْسُجُ أَطْرَادًا مَعَ تَشْكِيلِ الْمَكَانِ لِيَشْمَلَ خُطَابَاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَمُتَبَايِنَةً (28).

فَمِنْ هَذَا التَّعَدُّدِ الْمُتَلَاحِقِ لِلأَمَاكِينِ الَّذِي يَكْشِفُ تَعَدُّدًا لُغَوِيًّا وَأَيْدِيُولُوجِيًّا وَفِكْرِيًّا مَا نَجِدُهُ مِنْ حِكَايَةِ مُصَحَّفِ عُثْمَانَ الَّتِي يَتَنَاقَلُهَا الرُّوَاةُ، وَتَشِيْعُ فِي النَّاسِ عَنْ نُسخَتِهِ الْوَحِيدَةِ الْمُتَبَقِّيَةِ "يَقُولُ الْقَادِمُونَ مِنْ دِمَشْقَ إِنَّ النُّسخَةَ الْأَصْلِيَّةَ الْوَحِيدَةَ الْمُتَبَقِّيَةَ مِنْ مَصَاحِفِ عُثْمَانَ الَّتِي وَرَعَاهَا عَلَى الْأَمْصَارِ مَوْجُودَةٌ فِي مَكْتَبَاتِ الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ، وَرُيِّقَاتُ ذَلِكَ الْمُصْحَفِ مَا بَرَحَ عَلَيْهَا آثَارُ دَمِهِ، يَتَنَدَّرُ الْوَرَّاقُونَ فِي سُوقِ بَغْدَادَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ، وَيَنْعَتُونَ رَوَاتِهَا بِالْمُدْلَسِينَ؛ فَعُثْمَانُ قُتِلَ فِي الْمَدِينَةِ وَمُصْحَفُهُ فِي الشَّامِ... وَالْحِكَايَةُ مَا بَرَحَتْ تَدُورُ فِي الْعِرَاقِ! لَهْفِي عَلَى مَكْتَبَاتِ الْقِسَاوَسَةِ السُّرْيَانِ فِي دِمَشْقَ الَّذِينَ لَمْ يَدْعُوا كِتَابًا لِأُمَّةِ الْيُونَانِ دُونَ تَرْجُمَةٍ" (29).

فالحكاية تُضمَرُ تحسُّراً على ما آل إليه حال العرب والمسلمين من ضياع للعلم، وضيق في الأفق، وادعاء في الدين، كما تكشف عقلية العامة ومخافة منطق الأمور بما يفتقد إلى الحجة والبرهان، بل بما يخالفهما، ولا يفوت السارد المقارنة بين حال المسلمين الذين تركوا نسخ أهم الكتب وأعزها وأعظمها للقليل والقال دون منطق وعقل وتمحيص، والاكتفاء برواية مدلس عن غيره في مقابل أولئك النصاري السريان الذين لم يدخروا جهداً في ترجمة علوم اليونان وفنونهم.

ولولا تتابع الأماكن وتداخلها والانتقال المتتابع بينها لما ظهرت هذه المفارقة اللغوية والفكرية والأيدولوجية بهذه الحدة، كما أن المكان هو المشكل الأساس لبنية الحدث ولولا حضوره المكثف ما كان لهذه الحكاية أن يكون لها ذلك الوقع المؤثر الذي جاء متسرِّباً مضمراً منسباً عبر بنى مكانية يحمل كل منها مغزى، وفكراً خاصاً، كما يحمل الجمع بينها مقارنات وموازنات تستدعي مشاركة القارئ لاستكمال ظلال الأماكن الفكرية والدينية والأيدولوجية ملتزمة بجوهر الحدث وفكرته المضمرة، أو المسكوت عنها.

ونلاحظ أيضاً في وصفه المكان اعتماد الساردة في إطار الصور الأدبية؛ إذ يصف، مثلاً، تلك المرتفعات الصخرية مشبهاً إيها بأنها (قِمَمٌ صَخْرِيَّةٌ شَاهِقَةٌ مَسْنُونَةٌ كَأَنَّهَا مَرْدَةٌ مُصْطَفَوْنَ متاهبون لأمر جل)، كما يشبه الغدران الموزعة بين المنحنيات "وبين منحنياتها غدراناً كالمرايا لامعة الحصى" ممَّا يكسب وصف المكان شاعرية خاصة؛ ليصبح أكثر تأثيراً وأسرًا للمتلقين. والحقيقة أن الصور الأدبية، منذ زمن بعيد بعد الإبداع الأدبي نفسه، تمثل محوراً أساساً تدور حوله كل محاولات الفهم الدقيق الواعي لأسرار الفعل الإبداعي في الأدب خاصة؛ ومن ثم أدرك دارسو الأدب ونقادهم حين تعرضوا إلى طرائق التصوير الفني، مع تعددها واختلافاتها، أن النص الأدبي عامة دون صور أو تصوير لا يعدو أن يكون إلا ضرباً من الكلام العادي، الذي يألفه الناس في أثناء الممارسة البلاغية في علاقاتهم التواصلية (30).

ومن ثم؛ فيمكننا التنبؤ إلى أمر جد مهم؛ هو أن الساردة أراد أن يجعل من (المكان) رابطاً قوياً بين الرواية وعصرها؛ فالطريق المنبسط الذي جاء وصفه مفصلاً؛ كما تقدّم، بين مدينتي: عين التمر وبصرى. وكثيراً ما افتن المؤرخون والرحالة المسلمون في ثرائنا العربي في

هذا الربط، ومن أمثلة ذلك ما نجده عند أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خردادبة (ت280هـ)؛ حين يفصل وصف المكان في كتابه، ويجعل سرده شاعرياً بالاستشهاد بشعر غيره "المسالك والممالك" مقترناً بالإحالات التاريخية الدالة "الطريق من عين التمر إلى بصرى؛

قال الشاعر:

صَبَحَنَ عِنْدَ الشَّمْسِ عَيْنَ التَّمْرِ يَدُسُّ كُلَّ غَبْضَةٍ وَنَهْرٍ
فَمِنْ عَيْنِ التَّمْرِ إِلَى الْأَحْدَمِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى النَّحْفِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى الْخَلِطِ، ثُمَّ إِلَى سُؤى، قَالَ:
لِلَّهِ عَيْنَا رَافِعٌ أُنَى اهْتَدَى فَوَزَّ مِنْ قَرَأَرٍ إِلَى سُؤى

ثُمَّ إِلَى الْأَجِيفِر، ثُمَّ إِلَى الْغَرْبَةِ، ثُمَّ إِلَى بُصْرَى " (31).
وبالمقارنة نجد في صدارة الفصل الثالث ذكر أدق التفاصيل في وصف البنية العمرانية في تلك المدن التي دخلها الراوي/الرحالة عبر رحلته الطويلة؛ فيصف مكوّناتها ويصفها: "مكّنتنا في بصرى الشام لعدة أيام، مدينة فُتت من صخر؛ قباب وأقواس وأعمدة من الجارة العتيقة تبيض على حافة الصحراء كناقّة صالح، والهواء البارد الذي يمر بين أعمدتها يحمل همهمات دُعرٍ وقلقٍ.

كانت حوائطها مُشغلة بالبيع والمقايضات بين عرب الجزيرة وقاطني بلاد الشام، أودية صوفيّة، ومخيض، وبسط صوفيّة، والقوافل تتنازع الحبوب والبقول... " (32)، كما يصف، أيضاً، مدينة القطائع في القاهرة وصفاً يمزج فيه الطابع العمراني بالطابع السكاني: "الكثير من أحياء القطائع شبه مهجورة، لكن الأنحاء التي يختصنها جبل المقطم ما برحت عامرة ومؤهلة، وفيها سوق للذباجة، وآخر لصانعي الرماح

القطائع والقاهرة تدوان هنا كضرتين. الأولى مسيئة مهجورة ومهملة، عرّف عنها السلطان إلى القاهرة المعزية نصرّة وفاتنة فتيّة؛ فمنازل القاهرة لأمعة الجارة، واسعة الشرفات، يصعد إليها بدرجات بعيداً عن الطريق، والحدائق تعرش بين منزل وآخر، ومبانيها أفسح، وسوقها يبتعد عن المسجد الأزهر، والمدرسة حُشمة وإجلالاً لمقامه " (33).
يعتمد الوصف هنا على المفارقة للمقارنة بما يستدعي الأبعاد الحضارية والثقافية والسياسية جنباً إلى جنب مع الوصف العمراني الذي لا يأتي مجرداً، بل يأتي مُفعماً بروح اللحظة التاريخية بكل ما يكتنفها من عوامل ازدهار وانحطاط بلا مباشرة تُضيّع فنية السرد الروائي الرحلي.

ونلاحظ كذلك في وصف أبنية الروم في مدينة بصرى هذا المزيج في التسيج السردية "جُلّ من يمر بالمدينة يسير ليشاهد بقايا مُندثرة للروم تقع على أطراف المدينة، ومنها بُنيان دائري هائل تحيط به من الداخل مقاعد متدرجة نُحتت من الحجر، وقد نبت بين المقاعد الأعشاب والشجيرات الشوكية، يقابل المقعد مصطبة مرتفعة قد حُفّت بالأعمدة، كان أهل بصرى يطلقون على هذا المكان ملعب الروم. ولم أجد روما هناك، بل قطعاً من الغم الزهور البرية، وتتقافز فوق مقاعده. داخلني هبة وجلال لتلك المدرجات العظيمة والمقصورات العلوية التي تحفها. كان يعلو بعض الأعمدة تماثيل لوجوه فرعى زاعقة، كأنها تولول لخطر سيدهم المكان! " (34).

تقابل الصور المعمارية هنا بين الأعمدة الفخمة، والمقاعد الخشبية، وبين البنيان الدائري الفخم المهول ومرتع الغم، وهنا تتجلى نظرة السارد للآخر؛ فهذه التوطنات المعمارية ترد بوصفها مدخلاً لتفسير أحداث التاريخ، وتصاريف الأيام.

ولا يمكننا تحييد نظرة السارد وأيدلوجيته، ونظرته للآخر المختلف؛ وهنا يثار السؤال المطروح: هل تثار قضية الآخر في كل الأجناس الأدبية بشكلٍ واحدٍ، أو بدرجة واحدة، أم ثمة تشابه بين خصوصية نوع أدبي وآخر؟

وفي الإجابة على ذلك نجد أدب الرحلة أقدرها جميعاً في تعبيره عن صورة الآخر؛ لكونه جنساً فضافاً تسع الأجناس الأخرى من قصة، وسيرة ذاتية، وإثنوغرافيا، وتاريخ، وجغرافيا، ومقال؛ بما يجعلها أكثر قدرة في التعبير عن قضية الآخر أبلغ تعبير وأوسع (35). ومما يؤكد هذه النظرة ما نجده في موضع آخر في وصف قبّة الصحابي أبي زمعة البلوي حين زار مدينة القيروان: "المقام ينتصب قريباً من المسجد، بقبة زرقاء شاهقة، وضريح زين بفسيفساء زخرف برسوم طيور على رؤوسها تيجان ذهبية" (36).

نجد الوصف للمكان محوطاً بالمهابة والجلال والقداسة، تتجلى من خلال وصفه الذي يضمّر رؤيته للذات، التي تعني بها هنا الذات الإسلامية؛ كما نلاحظ في بهجة صورة المكان بزينة اللمعة الزاهية، وتيجانها الذهبية.

وتؤكد هذه النزعة بعقد المقارنات المختلفة بين المدن في طرزها المعمارية، وتتجاوز هذه المقارنات الأنا والآخر، فتصبح بين الأنا ونفسها لتعميق الرؤية لها عبر قسماتها المختلفة؛ من ذلك ما نجده من مقارنة بين العمران في القدس، ونظائره من أشكال الأبنية في بغداد: "ودخلت القدس مع مجموعة من التجار ... طراز المباني لا يشبه التي كنت أراها في بغداد، ولكن بعضها لا يزال مشغولاً بقاطنيه، وبعضها الآخر كان مهجوراً تخلعت أبوابه ونوافذه، ونبتت الحشائش أسفل جدرانها، كانوا يسمونها القصور الأموية. كنت أود الوقوف بها طويلاً للتفرس في ملك بات أطلاقاً..." (37).

ومن يراجع هذا النص وما قبله يشعر بألفته من خلال الثقافة المكانية التي تشكل جزءاً أصيلاً من الثقافة العامة للقارئ العربي، أو المثقف المسلم، وكأن الساردة حين وصفها المكان أو الفضاء الروائي ترمي من وراء وصفها بث نوع من المصادقية فيما تزويه، يجعل المكان في الحكاية ممثلاً، أو مشابهاً في جوهره، وفي مظهره الخارجي، أيضاً، لحقيقته في الواقع المعيش، وهو ما يوصف بالمماثلة بين الصورة السردية، ومرجعيتها الواقعية؛ ذلك أن السارد في وصفه الأماكن الطبيعية يستثمر في أثناء ذلك عناصره الفيزيائية التجسيدية؛ إذ يجعلنا نقف على الصورة الطبوغرافية للمكان السردية، التي نخبرنا عن مظهرها الخارجي (38)؛ فهو يرسم معادلاً بصرياً يجعل إدراك المكان ممكناً عن طريق اللغة (39)، كما يجعل من وصف المكان أداة تصوير للحدث وبيان جزئياته وتحديد أبعاده، وتوظيف عناصر المكان الحسية لتشكيل المكان المتخيل، إنما يدخل العالم الخارجي بتفاصيله الصغيرة في عالم الرواية التخيلي ويشعر قارئه بأنه يعيش في الواقع المعيش لا في عالم الخيال؛ مما يخلق انطباعاً بالحقيقة، كما يخلق تأثيراً مباشراً بواقعه المعيش (40).

ولا تغفل الساردة الأبعاد التاريخية في سردها؛ فنجدها تُضفي لمسات تاريخية في أثناء وصفها الدقيق لمظاهر العمران في تلك المدن التي يمر بها الرحالة البطل/مزيد الحنفي بما يناسب جوهر بنية السيرة الذاتية، كما تعكس في الآن ذاته ثقافة بطل الرواية ذلك الرحالة، أو جامع الكتب؛ كما اتسم واتصف؛ فلم يعد الوصف مجرد تحديد مكاني/خارطة وصفية تحكي موصفات المكان الخارجية، بل يأتي ممتزجاً بروحه وثقافته ومزاجه ونفاته الخاصة؛ ففي وصفه مثلاً لمسجد قبّة الصخرة حين رآه "وبجوار إحدى بوابات المسجد خفر فوق لوح

رُخامي: جُدِّدَ هذا المَسْجِدُ في عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.. قَالَ التُّجَّارُ عِنْدَ ذَلِكَ: وَصَلْنَا الْحَرَمَ الْقُدْسِيَّ... السَّلَامُ عَلَى أَوْلَى الْقِبْلَتَيْنِ" (41)؛ فَهَذِهِ الْإِشَارَاتُ التَّارِيخِيَّةُ الْمُهِمَّةُ تَأْتِي مُضْفَرَّةً فِي نَسِيجِ السَّرْدِ، فَيَمْتَزِجُ الْوَصْفُ الْمَكَانِي بِالتَّارِيخِ امْتِزَاجًا لَا يُمَكِّنُ فَصْلُهُ. وَهُوَ مَا نَجِدُهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ كَتَصْوِيرِ الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءِ فِي الْقُدْسِ الَّتِي قِيلَ إِنَّهَا نَزَلَتْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَا أُثِيرَ حَوْلَهَا مِنْ أَنَّهَا شَهِدَتْ لَحْظَةً هُبُوطِ أَبَوَيْ الْبَشَرِ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجَنَّةِ "هَلْ وَقَفَتْ عَلَيْهَا حَوَّاءُ يَوْمًا بِقَدَمَيْهَا الْمُحَنِّيَتَيْنِ بِمِسْكِ الْجَنَّةِ كَأَبْهَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ النِّسَاءِ؟ هَلْ سَمِعَتْ هَذِهِ الصَّخْرَةَ حَوَارِ التَّمَرْدِ بَيْنَ اللَّهِ وَإِبْلِيسَ الْمَارِقِ قَبْلَ أَنْ يُطْرَدَ مِنَ الْمَلَكُوتِ السَّمَائِيِّ؟" (42) ومثل تلك الإشارات التَّارِيخِيَّةُ كَثِيرٌ فِي الرَّوَايَةِ، بِمَا يَتَّبِعُ بِثقافة السَّارِدَةِ وتتنوع معارفه وغزارة اطلاعه على التَّارِيخِ الثَّقَافِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَشْكَلُ أَحْدَاثَ الرَّوَايَةِ/الرَّحْلَةِ.

1/2- التَّشْكِيلُ الْمَكَانِيُّ وَالْبُعْدُ الدِّيمُوغْرَافِي/طَبَائِعُ الْبَشَرِ

يَقُلُّ عَدَدُ الْأَشْخَاصِ فِي الْأَعْمَالِ السَّرْدِيَّةِ أَوْ يَكْثُرُ وَفَقًا لِنَوْعِ هَذَا الْعَمَلِ؛ فَالْقِصَّةُ التَّارِيخِيَّةُ أَوْ الْاجْتِمَاعِيَّةُ تَكْثُرُ فِيهَا الْأَشْخَاصُ، أَمَّا الْقِصَّةُ التَّحْلِيلِيَّةُ أَوْ الْعِلْمِيَّةُ فَيَقُلُّ عَدَدُ أَشْخَاصِهَا، وَثِقَاسٌ، عَادَةً، إِجَادَةُ السَّارِدِ بِمَدَى قُدْرَتِهِ فِي رَسْمِ شَخْصِيَّاتِهِ، وَتَمَيِّزِهَا بِسِمَاتٍ تَحْمِلُ بَصْمَةً خَاصَّةً، تَجْعَلُهَا حَيَّةً، كَأَنَّا نَرَاهَا بِأَعْيُنِنَا. وَقَدْ يُقْصَدُ بِهَذِهِ السِّمَاتِ هُنَا السِّمَاتُ الْمَادِيَّةُ، كَالطَّبِيعَةِ الْجِسْمِيَّةِ/ الْأَبْعَادِ الْفَسِيُولُوجِيَّةِ، كَاتِّصَافِهَا بِلَوْنٍ خَاصٍّ لِلْبَشَرَةِ، أَوْ تَقَاسِيمِ الْوَجْهِ، وَتَفَاصِيلَ خَاصَّةٍ بِالمَلَامِحِ الْجِسْمِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ السِّمَاتِ الْمَادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ؛ إِذْ يُعَدُّ هَذَا الْبُعْدُ الْخَارِجِيُّ مِنْ أَبْرَزِ أَبْعَادِ الشَّخْصِيَّاتِ، وَأَهْمِيَّتُهَا، أَيْضًا، فِي النَّصِّ السَّرْدِيِّ؛ فَبِهَا تَكْتَمَلُ أَبْعَادُ الرَّوَايَةِ وَسِمَاتُهَا الْمُمَيِّزَةُ (43).

وَلَكِنَّا قَدْ نُلَاحِظُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعَ مِنْ رَوَايَةِ أُمَيِّمَةَ أَنَّ وَصْفَهَا لَطَبَائِعِ سُكَّانِ الْمُدُنِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا الرَّحَالَةُ مَزِيدُ الْحَنَفِيِّ فِي (مَسْرَى الْغُرَانِقِ) يَتَّسِمُ بِالطَّبَائِعِ التَّوْثِيقِيَّةِ؛ الْمُرَادُ مِنْهُ، عَادَةً، تَقْيِيدُ التَّفَاصِيلِ الْوَارِدَةِ فِي الْوَصْفِ الْمَكَانِيِّ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ قَدْ يَتَّخِذُ طَابَعًا غَيْرَ الَّذِي لِحَظَانَهُ فِي وَصْفِ الْمَكَانِ؛ إِذْ عَكَسَتْ رُوحَهَا وَثَقَافَتَهَا وَأَيْدِيُولُوجِيَّتَهَا عَلَيْهِ؛ فَيَأْتِي ذِكْرُهَا، أَحْيَانًا، عَلَى سَبِيلِ الْمَشَاهِدَةِ، بَلْ مُجَرَّدِ الْمَلَاخِظَاتِ الْعَابِرَةِ.

وَلِتَقْرِبَ هَذِهِ الْفَرْضِيَّةُ نُثَمِّلُ لَهَا بِتَوْصِيفِ أَهْلِ الْقُدْسِ الَّذِينَ " يَتَوَرَّعُونَ مَا بَيْنَ عَرَبٍ وَسُرْيَانٍ، وَحَتْمًا هُنَالِكَ مِلَّةٌ أُخْرَى لَا أَتَّبِعُهَا، لَكِنَّهُمْ لَا يُشْبَهُونَ أَهْلَ بَعْدَادٍ: وَجُوهُهُمْ مَشْرَبَةٌ بِحُمْرَةٍ، وَتَقَاسِيمُهُمْ أَكْثَرُ دَقَّةً وَرَقَّةً، وَحَرَكَاتُهُمْ أَكْثَرُ كِيَاسَةً وَلِيُوثَةً. لَمْ يُبَالِ أَحَدٌ بِي؛ الْمَدِينَةُ تَزْدَحْمُ بِالْحُجَّاجِ، وَيَبْدُو أَنَّهُمْ اعْتَادُوا الْغُرَبَاءَ هُنَا" (44).

وَلَعَلَّنَا لَا نَشْعُرُ بِتَدَفُّقَاتِ عَوَاطِفِ السَّارِدَةِ فِي وَصْفِهِ طَبَائِعِ السُّكَّانِ الْمُمَيِّزَةِ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، بَلْ جُلُّ مَا نَجِدُهُ وَصْفٌ لِلْعُمَرَانِ وَالْأَبْنِيَّةِ، وَمُظَاهَرُ الْمَدَنِيَّةِ فِي صَوَرَتِهَا السُّطُوحِيَّةِ الصَّامِتَةِ؛ بِمَا يَظْهَرُ فِي الصُّورِ الْأَدْبِيَّةِ الَّتِي رَسَمَتْهَا اللَّغَةُ الشَّاعِرَةُ لِقَدَمِ حَوَّاءَ الْمَطْبُوعَةِ عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ: " هَلْ وَقَفَتْ عَلَيْهَا حَوَّاءُ يَوْمًا بِقَدَمَيْهَا الْمُحَنِّيَتَيْنِ بِمِسْكِ الْجَنَّةِ كَأَبْهَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ النِّسَاءِ؟ هَلْ سَمِعَتْ هَذِهِ الصَّخْرَةَ حَوَارِ التَّمَرْدِ بَيْنَ اللَّهِ وَإِبْلِيسَ الْمَارِقِ قَبْلَ أَنْ

يُطْرَد من المَلَكُوتِ السَّمَاوِيِّ؟ تملكنتي وحشةُ أبينا آدم؛ قد ثَقُلْنَا بفعلِ هيبَةِ المَكَانِ، وجُوعِ وعَطشِ الصَّائِمِ، وجماعةِ التَّجَارِ باثُوا قلقي الحَرَكَةِ سريعي الخُطُواتِ، وأخرجُوا من جُيوبهم مسابحَ طَوِيلَةٍ تكادُ تَصِلُ إلى الأرضِ، ووجوههم شاخِصَةً إلى السَّقْفِ تتأملُهُ، فيما ما برحتُ أتساءلُ: ما السُّورُ التي قرأها الرُّسولُ على صُفوفِ الأنبياءِ، وهو يُؤمُّهم في هذا المَوْضِعِ" (45).

فنحنُ، هنا، أمامَ لغةٍ شعريَّةٍ، وصورٍ حالمةٍ تعكسُ حالةَ وجدٍ، أو حالةَ خاصَّةٍ من الإلهامِ، وصدمةِ الانفعالاتِ بالمواقفِ؛ إذ يَغْدُو السَّارِدُ المُلهم كذالك الذي انجذب انتباههُ بَعَثَةٌ؛ فاختلَّت موازينُهُ؛ فصار ينفصلُ عن مخطَّطِ العمليَّاتِ الذَّهنيَّةِ المُعقَّدة؛ فتتهمَّرُ فجأةً فيوضاتُ من اللُّوحاتِ والمشاهدِ والصُّورِ والأخيَلَةِ؛ ومن ثَمَّ يُسيطرُ عليه الإلهامُ الدَّائِي، الذي يُنطلقُ في تلكَ اللَّحظاتِ الإبداعيةِ المُفاجئةِ، بما يَصحبُها من لَحظاتٍ مصحُوبةٍ بما يمكنُ وصفُهُ بالآزماتِ الشَّعُوريَّةِ، والانفعالاتِ التي لا يحكمُها عقلٌ منظَّمٌ أو مشاعرٌ مُجتَلِبَةٌ.

وليسَ معنى انتقادنا لوصفِ السَّاردةِ التَّسجيليِّ أنَّها ظاهرة في روايتها، بل على العكس؛ ففي معظمِ مشاهدِ الرِّوايةِ نجدُها تَتَّخِذُ من وصفِ طبائعِ سُكَّانِ المُدنِ التي يَمُرُّ بها مزيدُ الحَنَفِيِّ أبعادًا وصفيَّةً تتسمُ بالأصالةِ والعُمقِ، وكثيرًا ما نجدُ ذلكَ في وصفها حتَّى الأماكنِ التي تتشَرَّبُ الشَّخصيَّاتُ الثَّانويَّةُ بطبائعِها؛ فنشعرُ أنَّهم لم يظهروا لمُجرَّدِ خِدْمَةِ الشَّخصيَّاتِ الرَّئيسيةِ في النِّصِّ السَّردِيِّ، بل كشفوا إلى مدى جَدِّ بَعِيدٍ، أَجْزَاءَ مُهمَّةٍ من سماتِ الأماكنِ، وطبائعِها المميَّزة، فيتجاوزُ بعيدَ للعلاماتِ السَّطحيَّةِ الظَّاهِرةِ التي وصفناها آنفًا بالظَّاهريَّةِ. ومثال ذلك لتأكيدِ هذه الفرضيَّةِ وتوضيحِها ما جاءَ في وصفِ الوَرَّاقينَ وحوانيتهم: "كَانَ هُنَاكَ بَضْعٌ دكاكينَ فَقَطْ لِلوَرَّاقينَ فِي بُصْرَى، أَعينُهُم الفُضُوليَّةُ المُرَحِبَةُ أَغرَّتني بِأَن أَتَحَلَّلَ مِنْ بَعْضِ الكُتُبِ التي مَعِيَ وَأَن أَقايضَها بِما لَدَيْهِم، لَكِن سَوَقَهُم كَانَتْ حَامِلَةً خَالِيَةً مِنَ الرُّوَادِ" (46).

يَأْتِي هُنا وَصفُها لِسُكَّانِ بُصْرَى مُفَعِّمًا بِالمُشاعِرِ؛ كَمَا تَلَحَّظُ مِنْ وَصفِها أَعينُهُم بِالفُضُوليَّةِ المُرَحِبَةِ، فَذَانانِ التَّرحيبُ والكُرمُ قَدْ اسْتُشْهَرا بِهِما سُكَّانُ هَذِهِ المَدِينَةِ؛ فَقَدْ عُرِفُوا بِهاتينِ السَّمتينِ، وَنُظِمَتْ فِيها الأشعارُ، كقولِ أَبِي ذُؤيبِ الهذليِّ:

تَرَوَدُها مِنْ أَهْلِ بُصْرَى وَغَرَّةٍ
عَلَى جَسَرَةٍ مَرْفُوعَةٍ الذَّيْلِ وَالْكِفْلِ (47)

وهو ما نرى نظيرَهُ في وَصفِ جُنْدِ الصَّقَّالِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ: "كَانَ مَعْظَمُهُمْ مِنَ الصَّقَّالِيَّةِ بِيضُ الوُجُوهِ، وَخُمَرُ اللَّحَى، وَبِقِلنسُواتٍ مُدَبَّيةٍ، وَأَوْشِحَةٍ خَضراءَ، بَعْدَ انْتِهايِهِمْ مِنَ النَّقْشِ تَرَبُّوا قَليلًا يَنْتَظِرُونَ انْتِهاى مَندُوبِ بَيْتِ المَالِ مِنْ جَبايَةِ المُكُوسِ مِنَ التَّجَارِ" (48)، فالبِقِلنسُواتُ والأَوْشِحَةُ الخَضراءُ مِنَ الصِّفاتِ التي لا يَتَرَكُها الصَّقَّالِيَّةُ فِي الأَنْدَلُسِ؛ كما يَقولُ ابنُ فَضالَانَ فِيهِمْ: "وَكُلُّهُم يَلْبَسُونَ القلائِسَ، فَإِذا رَكِبَ المَلِكُ رَكِبَ وَحَدَهُ بِغَيْرِ غَلَامٍ، وَلا أَحَدٌ يَكُونُ مَعَهُ، فَإِذا اجْتازَ فِي السُّوقِ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا قامَ وَأَخَذَ قُلنسوتَهُ عَنْ رَأْسِهِ؛ فَجَعَلُها تَحْتَ إِبطِهِ، فَإِذا جاوزَهُم رَدُّوا قلائِسَهُم إلى رُؤُوسِهِم، وَكَذلكَ كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ إلى المَلِكِ مِنْ صَغيرٍ وَكَبيرٍ حَتَّى أولادِهِ وإِخوتِهِ ساعَةً يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ قَدْ أَخَذُوا قلائِسَهُم فَجَعَلُوها تَحْتَ أَباطِهِم ثُمَّ أومؤوا إِلَيْهِ بِرُؤُوسِهِم وَجَلَسُوا، ثُمَّ قامُوا حَتَّى يَأْمُرَهُم بِالْجُلُوسِ وَكُلُّ مَنْ يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْهِ

فإنما يجلس باركاً ولا يخرج قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك" (49).

ويُسلمنا كل ذلك إلى ملاحظة لطبيعة السرد التي ميّزتها، ونعني بها مدى ثقافتها التاريخية والجغرافية الواسعة، وفدريتها الفائقة على مراجعة المصادر التراثية المتخصصة التاريخية والجغرافية؛ فنجدها في وصفها أهل المدن التي يمرُّ بها مزيدٌ في روايتها الرحلية كما يردُّ في المصادر المعتبرة، وهو أمرٌ يمنح النصَّ السردِيَّ مسحةً واقعيةً واضحةً، تصلُّ للقارئ المثقف تاريخياً القارئ لهذه المصادر درجةً عاليةً من الصدق؛ فتكادُ مع هذه الواقعية تصيرُ روايتها الرحلية مصدرًا تاريخيًا توثيقياً للمدن والبلدان التي مرَّ بها مزيدُ الحنفِي وطبائع سكّانها.

ومن ثمَّ نجدُ أُميمة الخميس تشيرُ إشاراتٍ واضحةً مؤكدةً أنَّ مسرى الغرائيق روايةً تاريخيةً؛ وهو ما تطلَّب منها جهداً زائداً مضاعفاً؛ إذ احتاجتُ إلى مجموعة ضخمة من المصادر التاريخية لتوثيق مادة روايتها (50)؛ لذا نجدها قد توسَّعت في ذكرها الأبعاد التاريخية، وطبائع أهل تلك المدن؛ فمؤدَّن المسجد الأقصى، مثلاً، من: " قبيلة كلب العريية، التي أتت واستوطنت الشام، وأصولها من جزيرة العرب، ثمَّ أردف بنوع من التودد والزهو: نحنُ أخوال يزيد بن معاوية؛ فأتمه هي ميسون بنت بحدل الكلبية" (51).

نلاحظُ أنَّ الساردة قد صوّرت لنا مع حوار هذا المؤدَّن الطويل كشفًا جلياً عن سماته الأنثربولوجية، وسمات المقدسيين والشاميين بما سجّلته كتب التاريخ؛ إذ تكشف عن أغوار تلك الشخصيات وهمومها الدفينة الكامنة داخل نفوسها، كما تكشف عن دوافعها الخفية.

وقد نجدُ الحوار من طرفٍ وحيدٍ ظاهرٍ، وإن كنّا ندركُ من خلال الطَّرَف المذكور الآخر الغائب، وهدف هذا المونولوج، الذي يصيرُ ديالوجاً اعتبارياً، تجلية أفكار ذلك المتحدث، والكشف عن نواياه الداخلية للمتلقي؛ إذ يأتي الحوارُ ذا حيويةٍ ونبضٍ في تركيزٍ وتعبيرٍ عن الانفعالات الداخلية الذاتية، مع مراعاة أن يأتي عادةً مناسباً للمستوى العقلي والاجتماعي والثقافي للشخصيات؛ فينتهي إلى تجسيد صورة متكاملة عنها؛ فهذا المؤدَّن الذي يسكنُ القدس يراه الساردُ من خلال "المأذن في القدس تدعو لآل البيت، وهذا المؤدَّن يفخرُ

بيزيد بن معاوية؛ فحدثتُ أنَّ عالمه ينحصرُ ما بين أعلى المئذنة وأسفلها، ولم أكنُ في ذلك الوقت قد اعتدتُ على طبع أهل الشام المتبسط مع الغرباء، المسترسل مع المارة. هذا بعد أن علّمني مكوّني في بغداد أنَّ للغريب حدوداً وجمي يجب أن يخرس لسانه دونها؛ فلا يدري أيّ كلمة قد تشهرُ خنجراً في وجهه" (52)؛ فهذه الصورة النهائية التي يرسمها هذا المَشْهُدُ المُمَثِّلُ لطبائع أهل المدينة، ومعتقدهم، ومذهبهم، وما يميّزُ طبيعتهم عن غيرهم، إنّما تخلّق من واقع الحوار الكاشف عن طبائع سكّان الشام من خلال صورة المؤدَّن المتجسدة المصوّرة بدقّة في جواره.

2- الفضاء المعنوي/الثقافي للمدينة

من سمات الأدب الرَّحَلِيّ؛ كما أسلفنا، قدرته على إبراز العلاقات المتبادلة بين طبيعة المكان وطبائع الإنسان، وقد ثولت هذه العلائق من خلال صور الحيوانات الاجتماعيّة والدينيّة، وقد شكّل التأثير الدينيّ الرّكيزة الأساس من الرّكائز التي تشكّل الصورة الكلّيّة لنا وللآخر في الوقت ذاته (53)؛ لذا اهتمّت الروايات العربيّة المعاصرة إلى حدّ كبير باشتغالها على هذا الجانب الدينيّ بمختلف أشكاله، ومصادره، ومشاربه، ويعود ذلك لعدّة أسباب؛ أهمّها بالنسبة للثقافة العربيّة الإسلاميّة الثّراث الدينيّ الإسلاميّ خاصّة؛ إذ يُشكّل جانباً مهماً من المكوّن الثقافيّ للمجتمعات العربيّة والإسلاميّة (54).

1/2- الثّقافة الدينيّة

بدأ اهتمام أُمَيَّة الخُميس برسم الأبعاد والجوانب الدينيّة للشخصيّات روايتها الرحليّة "مسرى الغرائيق" منذ سُطورها الأولى، بل من الجملة الأولى: "أقصد مدينة القدس، ولست نبياً ولا صديقاً ولا مُبشّراً، ولست مُريداً في مرّحلة أولى من معراج السّؤال كي أنقّب عن جوابي في حلّقات الجوامع، ووحشة الصّوامع، ولكنني محضٌ تاجر كتب في زمن الفتنة والاحتراب، وشهوة إحراق المدونات والمخطوطات، وتطهير الذنوب بجمرها" (55). فهذه فقرة كاشفة عن ثقافتنا الدينيّة الإسلاميّة خاصّة وما اعترأها من حوادث تلك الأيام؛ لذا لا نمرّ في أيّ موضع من مواضع وصف المُدن التي يمرّ بها البطل مزيّد الحنفّي إلا نجد وصفاً دينياً لحالة أهل كلّ مدينة؛ أو تصف ما يميّزها من العمارة الدينيّة، مضفّة هذه الأوصاف بالثّراث الدينيّ الإسلاميّ الذي يسمّى كلّ مدينة عن سواها؛ فعلى سبيل التّمثيل نجد القدس، في الفقرة الأولى من روايتها؛ كما نقلناها، هي المدينة المُتسمّة بالصّوامع والمساجد، ولا سيّما ذات التّاريخ الإسلاميّ الحافل بالأحداث المشهورة الماثورة؛ فمنها كان معراج النّبيّ محمّد ﷺ.

وكما نجد في صدارة الفصل الثّاني أيضاً؛ كما وجدنا في الأول، ومنذ الفقرة الأولى في وصف رحلة الحجّيج وقوافلهم: "كنا ثلاثة رفاق، جمعتنا القافلة التي ماشت قوافل الحجّيج العائدين، مُنطلقين من لبّتهم القصير في حجر اليمامة قاصدين البصرة. قال لي صاحب القافلة: إنّ المسافة بين حجر اليمامة والبصرة طويلة" (56)، بل لا تتسمّ بعض المُدن في الرواية إلا بسماتها الدينيّة فحسب؛ كما نجد في وصف مدينة بُصرى: "وبعد مسيرة ثلاثة أيّام من بُصرى باتجاه الغرب تبدّى لنا عن كُتب جبل هائلٌ بتلال وأهضاب بين أحراش وأشجار متشابكة، وتنتثر فوقه المآذن وقباب الكنائس، صاح قائد القافلة: كبروا إنّهُ جبل الرّيتون ومدينة الأنبياء، لقد أشرّفنا على القدس في اليوم الثّاني من رمضان" (57).

فقد ارتكز السرد الوصفيّ لمدينة القدس؛ كما تلاحظ في اهتمام الساردة، على الأثر الدينيّ، فلم تبالِ بأيّة ملامح مادّيّة ظاهرة، أو معنويّة إلا بتلك الملامح الدينيّة المميّزة للمساجد والقباب في القدس؛ لذا جاءت الملامح المعنويّة مختزلة ومُكتفّة في توصيفها بأنّها مدينة الأنبياء؛ وهو ما يُضيف أبعاداً ثقافيّة مميّزة لروايتها الرحليّة هذه من خلال وصفها للطّوق الدينيّ للمسلمين، وغير المسلمين أيضاً، والتّعريف بكلّ منهما حسب معتقداتهم المُختلفة والمتقاطعة أيضاً؛ لذا نجد الرّاوي يفسّر همسات الحجاج النصارى وتراتيلهم

وأَسْجَاعَهُمَ الَّتِي يَرِدُّونَهَا هَكَذَا "كُنْتُ مُنْشَطِرًا مَا بَيْنَ التَّفَرُّسِ بِهِمْ، وَمَتَابَعَةِ خُطَوَاتِ الشَّيْخِ الْقَيْسِيِّ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَسْ دُهُولِي وَحِيرَتِي؛ فَقَالَ مُشِيرًا بِرَأْسِهِ إِلَى جَمَاعَةِ الْحُجَّاجِ النَّصَارَى: اقْتَرَبَ أَحَدُ الشَّعَانِينَ هُوَ الْأَحَدُ السَّابِعُ مِنَ الصَّوْمِ الْكَبِيرِ، وَالْأَخِيرُ قَبْلَ عِيدِ الْفَصْحِ أَوْ الْقِيَامَةِ، وَيُسَمَّى الْأُسْبُوعُ الَّذِي يَبْدَأُ بِهِ أُسْبُوعُ الْأَلَامِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ ذَكَرَى دُخُولَ النَّبِيِّ عَيْسَى إِلَى مَدِينَةِ الْقُدْسِ، وَيُسَمَّى هَذَا الْيَوْمُ أَيْضًا أَحَدَ السَّعَفِ أَوْ الرَّيْتُونَةِ؛ لِأَنَّ أَهْلِي الْقُدْسِ اسْتَقْبَلْنَهُ كَمُنْتَصِرٍ بِالسَّعَفِ وَالرَّيْتُونِ الْمُزَيْنِ، وَيُعَادُ اسْتِخْدَامُ السَّعَفِ وَالرَّيْتُونَةِ فِي غَالِبِيَةِ الْكُنَائِسِ لِاحْتِفَالِ بِهَذَا الْيَوْمِ"⁽⁵⁸⁾.

وَتَخْتَلَفُ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ مِنَ السَّرْدِ بِالضَّرُورَةِ عَنْ أَسْلُوبِ السَّرْدِ التَّارِيخِيِّ؛ إِذْ يَظَلُّ أَقْرَبَ إِلَى النَّاقِدِ نَوْرُ ثَرَوِ فَرَايٍ بِالْقَصَصِ الصَّائِبِ الْخَالِدِ الْمُعْبَرِ عَنْ رُوحِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَأَسَاطِيرِهَا الثَّابِتَةِ فِي جَوْهَرِهَا مَهْمَا تَغَيَّرَتْ مَلَامِحُهَا الْخَارِجِيَّةُ؛ بِاعْتِبَارِ أَنَّ لِكُلِّ مُجْتَمَعٍ إِنْسَانِيٍّ كَائِنْ مَا كَانَ شَكْلًا مُتَمَيِّزًا خَاصًّا بِهِ مِنَ الثَّقَافَةِ الَّتِي تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ⁽⁵⁹⁾.

اهْتَمَّتِ الْحَمِيسُ، أَيْضًا، بِوَصْفِ الْكَثِيرِ مِنْ تَفَاصِيلِ الْمُعْتَقَدَاتِ الدِّينِيَّةِ فِي الْمُدُنِ الَّتِي مَرَّ بِهَا مَزِيدُ الْحَنْفِيِّ بَطْلُ الرِّوَايَةِ؛ وَيُمْكِنُنَا التَّمَثِيلُ لِذَلِكَ بِوَصْفِهَا مُعْتَقَدَاتِ أَهْلِ مَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ؛ كَالَّذِي نَرَاهُ فِي مَشْهَدٍ وَصَفٍ مَقَامِ الصَّحَابِيِّ أَبِي زَمْعَةَ الْبَلَوِيِّ: "وَجَدْتُ أَنَّ مَعْظَمَ مَنْ غَادَرَ الْمَسْجِدَ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ قَدْ ذَهَبَ إِلَى مَقَامِ الصَّحَابِيِّ أَبِي زَمْعَةَ الْبَلَوِيِّ.

الْمَقَامُ يَنْتَصِبُ قَرِيبًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بَقِيَّةِ زَرْقَاءِ شَاهِقَةٍ، وَضَرِيحِ زَيْنَ بُسَيْفَسَاءِ زُخْرَفَتْ بِرُسُومِ طُيُورٍ عَلَى رُؤُوسِهَا تِيْجَانٌ ذَهَبِيَّةٌ يَخْرُجُونَ مِنَ الْجُمُعَةِ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ، وَالنَّضْرُ عِنْدَهُ فِي رَفْعِ الْبَلَاءِ، وَدَفْعِ الْمَصَائِبِ، وَجَلْبِ الرِّزْقِ؛ فَهُوَ الْوَلِيُّ وَالْوَسِيلَةُ، الَّذِي يَحْتَفِظُ بِثَلَاثِ شَعْرَاتٍ مِنْ لِحْيَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ؛ إِذْ يَذْكُرُونَ أَنَّهُ كَانَ حَلَّاقَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ"⁽⁶⁰⁾.

وَهُوَ مَا نَلْحَظُهُ أَيْضًا فِي وَصْفِهَا مُعْتَقَدَاتِ الْإِمَامَةِ؛ لَكُونِهَا أَهَمُّ مَكُونَاتِ الْإِعْتِقَادِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ؛ فَقَدْ كَانَتْ دَائِعَةً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُدُنِ؛ وَمِنْهَا مَدِينَةُ الْيَمَامَةِ: "جَدِّي شَيْخٌ وَإِمَامُ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ فِي حِصْنِ بَنِي الْأَخِيضِرِّ فِي جَبْرِ الْيَمَامَةِ وَسَطَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، يَدْعُو فَوْقَ الْمَنْبَرِ لِأَلِ الْبَيْتِ الْعَلَوِيِّ عَقَبَ كُلِّ صَلَاةٍ بِطَوْلِ الْعُمْرِ وَالتَّمَكِينِ وَالْإِسْتِخْلَافِ بِالْأَرْضِ؛ فَتَوْمُنٌ بَعْدَهُ الْيَمَامَةُ جَمِيعُهَا"⁽⁶¹⁾.

هَكَذَا تَنْشَكُلُ الْفَضَائِلُ الْمَعْنَوِيَّةُ بِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ حَمُولَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ، وَبِخَاصَّةِ الثَّقَافَةِ الدِّينِيَّةِ، وَمِنْهَا مَا نَجِدُهُ مِنْ وَصْفٍ لِلْأَغْلَبِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ فِي مَدِينَةِ الْكُوفَةِ: "فَصِيلٌ مِنَ الْقَوَائِلِ انْفَصَلَ عَنَّا وَوَاوَصَلَ إِلَى الْكُوفَةِ، وَتَمَنِّيْتُ أَنْ أَرَفِقَهُمْ لِزِيَارَةِ مَرْقَدِ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَهَتَفَ بِي مَسْلَمَةٌ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ؛ مَنْ أَرَادَ الشَّهَادَةَ فَلْيَذْهَبْ إِلَى دَارِ الْبَطِيخِ (الْكُوفَةِ) فَإِذَا صَلَّيْتَ عَلَى الرَّسُولِ وَتَرْضَيْتَ عَنْ صَحَابَتِهِ سَيَقْطَعُونَكَ إِرْبًا، وَلَا يُعْمَلُ فِيهَا مِنَ السَّنَةِ سِوَى فِي الْكُنَاسَةِ"⁽⁶²⁾.

وَقَدْ نَجَدُ لِلسَّارِدِ/ الْبَطَلِ مَوْقِفًا نَاقِدًا أَوْ رَافِضًا لَتِلْكَ الْمُعْتَقَدَاتِ أَوْ بَعْضِهَا؛ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ نَجَدُهُ يَتَهَكَّمُ بِبَعْضِ الْمُعْتَقَدَاتِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ مِنْهُ ذَلِكَ وَفَوْقَ رُؤْيَا سَرْدِيَّةٍ نَابِعَةٍ مِنْ

الحكاية: "هبطت بعض العصافير والطُيور تنقر في البقايا، استقرت النظر إلى الطُيور بالطبع ليس بينها البومة؛ لأنها صائمة، تستعد للزواح طوال الليل على الحسين" (63).
يتهم في مثل هذه المشاهد الوصفية على بعض المعتقدات التي شاعت في الروايات الشيعية؛ كمعتقدهم أن البومة لم تكن تسكن إلا العمران؛ فلما استشهد الحسين بن علي عليه السلام - آلت البوم على أنفسها ألا تأوي إلى العمران، ولا تأوي، أيضاً، إلا إلى الخراب؛ لكونها تقضي نهارها صائمة حزينة حتى يجن عليها الليل؛ فإذا جن لم تزل تنوح على الحسين حتى تُصبح (64).

ولا يخص السارد معتقد الشيعة أو معتقداً بعينه، بل نجده ينتقد أيضاً بعض معتقدات أهل السنة؛ كما نلاحظ في مواضع أخرى يستهجن بعض اعتقادات المنتمين المتحيزين للبيت الأموي فيما يخص مقتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وما أشيع عن مصحفه: "يقول القادمون من دمشق إن النسخة الأصلية الوحيدة الباقية من مصاحف عثمان التي ورعها على الأمصار موجودة في مكتبات الجامع الأموي، وورقات ذلك المصحف ما برح عليها آثار دمه" (65).

ونجد مثل هذا الموقف ثجاء بعض المعتقدات التي يمكن أن نسلکہا في باب الخرافات والأساطير؛ مثال ذلك ما ذكر من اعتقاد أهل مدينة حجر في قبر حمدان قُرْمُط من أنه سيبعث منه، ويركب فرساً: "... فهمس لنا أن هذه القبة مبنية على قبر سيده ومولاه حمدان قُرْمُط والفرس بسرجهما ولجامهما لا تغادر مكانها ليلاً ولا نهاراً تنتظره فقط ليبعث من قبره ويركباها، وينطلق ليملا الأرض عدلاً بعد الجور" (66).

ومن صميم تلك الثقافة ما يذكره السارد من بعض الأحكام الفقهية الإسلامية؛ كحكم الإبل الهائمة الذي ورد على لسان مزيد: "تبين لي رأي جزور مجزور وملقى إلى جوار السور وجلده المسلوخ، وأكوام لحمه متناثرة جوار بركة من الدماء، طار مني كل النعاس، واتسعت عياني دهشت وأشارت إليهما: ما هذا؟ قال مسلمة: وجدناها هائمة، والهائمة لقيا، واللّقا هبة، وذبحناها وشبعنا من لحمها" (67). ومن ذلك تتبّع ذكر هذا الحكم الفقهي في التفريق بين الهائمة واللّقة وما قيل بين الفقهاء في هذه المسألة الفقهية: "ولكن وما أدراكما أنها هائمة؟! الواجب أن تدورا في الأسواق عدة أيام أدناها ثلاثة تناديان على صاحبها فإذا لم يجبكما أحد تصبح لقيا" (68).

ونجده يتوسّع في هذا الحكم الفقهي؛ فيحكي لمناقشة فقهية جرت بين مزيد الحنفي وصديقيه حين أجاب: "بل هي لقيا. هتفت متعجبا: شرط الضالة ثلاثة أيام، وأنت لم تصل البصرة إلا أمس!! فقال مسلمة بصوت فيه تهكم: ولا ندري عن دينكم يا حضرة الإمامة كيف نحرفون فيه وتلون أعناق النصوص" (69).

هكذا نشعر بالتحري وراء الحكم الفقهي، وكأننا أمام سؤال بحثي، أو طرح علمي، لا نصّ روائي خيالي.

سؤال الهوية، وبخاصة الهوية الثقافية من أهم أسئلة الخطاب الروائي المعاصر؛ لذا طرحت الرواية العربية، ولاسيما المعاصرة سؤال الهوية الثقافية لكون إجابته أهم ما يسمُّ المجتمعات جميعها منذ نشأتها الأولى لدى رفاة رافع الطهطاوي (1801-1873م) في كتابه المؤسس لهذا السؤال المحوري: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، ثم توالى الأعمال التي اهتمت بمحاولة الإجابة عن سؤال الهوية الثقافية لمجتمعاتنا بعد ذلك، وخصوصاً المجتمعات التي ذهب إليها الرواة المختلفون؛ كما نجد في رواية (عصفور من الشرق) لتوفيق

الحكيم، ورواية (موسم الهجرة للشمال) للطبيب صالح، ورواية (الحي اللاتيني) لسهيل إدريس⁽⁷⁰⁾، وغيرهم من الذين حاولوا الإجابة عبر نصوصهم الروائية التي يصعب رصدُها أو إحصاؤها هنا.

وقد اهتمت أميمة الخميس في (مسرى الغرائيق في مدن العقيق) كل الاهتمام في تتبع وصف هذه الثقافات المتباينة لتلك المدن المختلفة التي مرَّ بها مزيد الحنفى بطل روايتها، سوى أن معظم هذه الثقافات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بغيره من مظاهر الحياة المختلفة؛ فأهل مدينة بصرى، على سبيل المثال، رأينا معظمهم من النصارى، الذين غلبت على كتاباتهم الكتابة باللغة السريانية، وقد تكون المظاهر الثقافية لسكانها مرتبطة بأصول نشأتهم الخاصة، وليس بالمكان أو المدينة التي صاروا من سكانها، وموجودين بين جناباتها؛ كالجند الفاطميين الذين يحيطون بسور القاهرة المعزية، الذين يتحدثون بلغة عربية معطوبة، ويرطنون بالبربرية "استوقفني عند البوابة العسكر الفاطميون الذين ظل الحجاج طوال الرحلة يتحدثون عن سطوتهم وشراسة طباعهم. يقولون إنهم تحدرُوا من جبال الصحراء وقسوتها سمر الوجوه يعتمرون عمائم بيضاء ثقيلة وفي يمينهم رماح طويلة، ويتكلمون عربية معطوبة" (71).

وفي هذا النص إشارة مهمة ودقيقة إلى أصولهم المغربية البربرية التي بدأت من لدنهم الدعوة العبيدية حتى امتدت إلى القاهرة (72)؛ فلم يكتف السارد في وصف الثقافة المجتمعية بذاتها في مدن العقيق، بل امتد طموحه ليربطها بغيرها من ملامح الثقافة الدينية أو المكانية، المميّزة لهوية هذه المجتمعات.

ومن أمثلة ذلك ما نجده في وصف بغداد "وقالاً بفخر إنه سيضعهما على قائمة أعطيات دار الخلافة وهباتها؛ فيصبح بوسعهما المكوث في بغداد والنمغ بأنهارها ومبانيها، وجسورها، وحدائقها، والنطريب بسماع رنين الخلاخيل من جواربها المتبذلات دون أن يضطر إلى الذهاب أربعين فرساً شمالاً نحو أرض يحيونها" (73).

يُحيلنا هذا النص إلى موروثنا الثقافي في العصر العباسي؛ حين كانت بغداد في هذا العصر الذهبي من الرقي الحضاري وما اتصل به من ألوان الفنون والغناء؛ حتى وجدت أسواق لبائعي الخلي والطرف المعدنية، وإن صاحب ذلك لون من ألوان الرق التي كانت شائعة في تلك العصور؛ أعني أسواق الرقيق المكتظة بالجواري من كل لون وجنس (74).

وُحِيلُنَا فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى عَلَى مَظَاهِرٍ ثَقَافِيَّةٍ أُخْرَى؛ كَاعْتِقَادِهِمْ بِالْفَلَكَ وَمَا يَشِي بِهِ مِنْ أَحْدَاثٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ: "حِينَمَا وَصَلْتُهَا كَانَ أَهْلُهَا لَا يَزَالُونَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ نَجْمٍ ظَهَرَ فِي السَّمَاءِ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ مُسْتَهْلٌ شَهْرَ شَعْبَانَ يَشْبُهُ الرَّهْرَةَ فِي كِبَرِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْئِهِ عَنْ يَسَارِ الْقِبْلَةِ يَتَمَوَّجُ، وَلَهُ شِعَاعٌ عَلَى الْأَرْضِ كَشِعَاعِ الْقَمَرِ"⁽⁷⁵⁾.

هذه الأنماط المتنوعة التي اهتمت بإبراز المناحي الثقافية، تكاد تُشكّل نمطاً متكرراً في نصوص أدب الرحلات؛ إذ يصوّر موروث هذه الأمم الثقافي، والمادي من خلال تصوير مُدُنِهِمِ التُّرَاثِيَّةِ وَمَعَالِمِهِمِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَثَرِيَّةِ⁽⁷⁶⁾؛ حَتَّى غَدَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي وَصْفِ الْمَلَامِحِ الثَّقَافِيَّةِ لِأَيٍّ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَصَارَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقْدَمَ صُورَةٌ كَلِيَّةٌ لِلْمُجْتَمَعَاتِ الْمَوْصُوفَةِ؛ فَكُلُّ الْمُجْتَمَعَاتِ لَا يَنْفَصِلُ فِيهَا وَصْفُ مَنَاجِي الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ عَنْ بَعْضِهَا إِلَّا لِمَامَا؛ فَلَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ الْجَوَانِبِ الثَّقَافِيَّةِ مَثَلًا بَعِيدَةً بَعْدًا تَامًا عَنِ الْجَوَانِبِ الدِّينِيَّةِ، أَوِ الْجَوَانِبِ الْجُغَرَاْفِيَّةِ؛ فَكُلُّهَا جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ مُكَوِّنَاتِ مُصْطَلَحِ الثَّقَافَةِ، الَّذِي هُوَ نَتَاجُ تَقَاعُلٍ بَيْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْعَوَامِلِ الْأُخْرَى كَالدِّينِ وَالْعَادَاتِ وَالْقِيَمِ وَاللُّغَةِ⁽⁷⁷⁾.

تَوَقَّفَ السَّارِدُ فِي "مسرى الغرائيق" أَمَامَ أَبْرَزِ الثَّقَافَاتِ الْمُمَيَّزَةِ لِكَلِّ مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ الْعَقِيقِ؛ فَمِمَّا يُمَيِّزُ ثَقَافَةَ الْقُدْسِ أَنَّ "عِلْمَاءَ الْقُدْسِ شَدِيدُوا الشَّغْفِ بِالْغُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِهَا فِي مَكْتَبَاتِ كَنَائِسِهِمْ، وَيَحْرِصُونَ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ الَّتِي تَحْوِي أَسْرَارَ كُتُبِ الْإِغْرِيقِ وَسِرِّ تَحْوِيلِ الْمَغْدِنِ الْخَسِيسِ إِلَى ثَمِينٍ"⁽⁷⁸⁾.

وَيُمْنِنَا أَنْ نَزِيدَ مَثَلًا آخَرَ يَخْصُ ثَقَافَةَ أَهْلِ بَغْدَادَ، الَّذِينَ كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْ عِلْمِ الْفَلَكَ، حَتَّى: "وَقَفَ رَجُلٌ فِي أَحَدِ مَسَاجِدِ بَغْدَادَ يُدْعَى ابْنَ الْمَارِسَانِيَّةِ رَافِعًا فِي يَمِينِهِ كِتَابَ هَيْئَةِ الْعَالَمِ أَحَدِ كُتُبِ الْفَلَكَ الَّتِي أَلْفَهَا ابْنُ الْهَيْثَمِ، وَأَخَذَ يُؤَلِّبُ الْبُسطَاءَ وَالْعَامَّةَ ضِدَّهُ وَيَبْهَمُهُ بِالْكَفْرِ وَالزُّنْدَقَةِ، وَيُشِيرُ إِلَى دَوَائِرِ مَوْجُودَةٍ فِي الْكِتَابِ عَلَى أَنَّهَا طَلَّاسِمٌ سِحْرِيَّةٌ"⁽⁷⁹⁾.

3/2- الثَّقَافَةُ الشَّعْبِيَّةُ: الْعَادَاتُ وَالتَّقَالِيدُ:

قَدْ يُمْكِنُنَا الْقَوْلُ إِنَّ وَصْفَ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ، وَبِخَاصَّةِ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ، أَقَلَّ الْمَلَامِحِ الَّتِي نُفَرِّدُ لَهَا مَسَاحَاتٍ مُنَاسِبَةً فِي الرِّوَايَاتِ الرَّحْلِيَّةِ⁽⁸⁰⁾؛ لِأَسِيْمَا فِي مِثْلِ رِحْلَةِ (مَزِيدِ الْحَنْفِيِّ) فِي رَوَايَةِ الْخَمِيسِ الرَّحْلِيَّةِ؛ إِذْ تَشْهَدُ تَنْقَلَاتٍ سَرِيعَةٍ، وَلَا نَجِدُ فِيهَا إِقَامَةً طَوِيلَةً فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ بَعِينَةٍ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَحْتَاجُ فِيهِ تَوْصِيفَ مَلَامِحِ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ إِلَى طُولِ عَشْرَةِ الْأَحْوَالِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، الَّتِي قَدْ لَا يَتَوَفَّرُ لِمِثْلِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الرِّحَالَاتِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُنَا الزَّعْمُ أَنَّ رَوَايَةَ

(مَسْرَى الْغَرَائِيقِ) قَدْ خَلَّتْ مِنْ وَصْفِ هَذِهِ الْجَوَانِبِ فِي أَثْنَاءِ ذِكْرِهَا لِلْجَوَانِبِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْمُدُنِ فِي رِحْلَةِ (مَزِيدِ الْحَنْفِيِّ)، وَإِنْ جَاءَتْ قَلِيلَةً نَسْبِيًّا قِيَاسًا بِغَيْرِهَا مِنْ مَلَامِحِ الْحَيَاةِ الثَّقَافِيَّةِ.

يَصِفُ لَنَا السَّارِدُ/ مَزِيدُ الْحَنْفِيُّ بَعْضَ عَادَاتِ الْعِرَاقِيِّينَ فِي النُّقُوبِ مِنْ كُتُبِ الدَّوَاوِينِ أَوِ الْقَائِمِينَ عَلَى الْخَرَاجِ، وَرَغِبَتِهِمْ فِي اقْتِطَاعِ قِطْعًا مِنَ الْأَرْضِ لِيُحْيَوْهَا وَيُعَمَّرُوهَا وَفِي الْمُقَابِلِ يُؤَدُّونَ عَشْرَ خَرَاجٍ لِابْنِ الْمَالِ، إِلَّا أَنَّ أَغْلَبَ هَذِهِ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الَّتِي يَصِفُهَا تَبْدُو وَاقِعَةً فِي نِطَاقِ عَادَاتِ الْأَزْيَاءِ وَتَقَالِيدِهِمْ فِي الْمَلَابِسِ؛ كَالْخَلَاخِيلِ وَالْبِرَاقِ الْمَزْرُكَةِ بِالْدَّرَاهِمِ الْفِضِّيَّةِ فِي قُرْطَبَةٍ، وَالتِّيَابِ الطَّوِيلَةِ الْمَشْغُولَةِ الْأَطْرَافِ بِخُيُوطٍ حَمْرَاءَ فِي الْقُدْسِ.

وقد تكونُ العاداتُ ذاتُ تعلُّقٍ بطائفةٍ مُعيَّنةٍ من طوائفِ أهلِ هذهِ المُدن؛ كوصفِ البطلِ عادةً أصحابِ القوافلِ في كونِ "عادةِ أهلِ القوافلِ يُنادونَ على وجهاتهم ومقاصدهم" (81). ويصفُ عاداتَ بعضِ التُّجَّارِ البصريينَ بأنهم: "أكثرُ اعتناءً بلفِ العمامةِ على رؤوسهم وجعلِ لونها يتواءم مع لونِ العباءة" (82).

وقد يمزجُ بذلكَ وصفَ بعضِ طرائقِ التداوي "لكن تزامنَ وصولي إلى السوقِ ووصولِ قوافلِ من الصحراءِ محمَّلةً بأسرابٍ من صيدِ الصحراءِ قطاً وعصافيرَ وسلالاً من الكمأة والحنظلِ الذي يحرصُ عليه أهلُ بغدادَ كمطهرٍ لأمعائهم" (83).

أو ينتقدُ شيئاً من هذهِ العاداتِ؛ كقنْدهِ عادةِ بعضِ الباعةِ بأنهم "خيرٌ من يشي لك بالأسرارِ في سبيلِ أن يصرفَ بضاعته" (84).

ويصفُ، أيضاً، هيئةَ بعضِ أهلِ الحرفِ؛ كوصفه من يُشرفُ على العمَّالِ المُزارعينَ: "يحملُ في يدهِ سوطاً لم يكن يلسعُ به أحداً سوى الدُّبابِ، ولكن يبدو أنه كان يُلَوِّحُ به ليُضفيَ هيئةً" (85). ويصفُ العمَّالِ المُزارعينَ أنفسهم بأنَّ كلاً منهم: "يخرجُ من البيوتِ الطينيةِ للمزرعةِ بعضُ الخدمِ يحملونَ لفائفَ وأوانيَ ويتعاونونَ على حملِ سلالٍ كبيرةٍ مليئةً بأقراصِ قمحٍ مُنتفخةٍ ساخنةٍ خرجتْ للتو من الثَّورِ؛ فيفرشونَ الحَصائرَ تحتِ النخيلِ، ويوزعونَ فوقها الرقائقَ وأطباقاً فيها دبسُ الثمرِ، وطاساتٌ من الحليبِ يَصْطَفُ حولها العمَّالُ جوعاً مُنهكينَ فما يقومونَ عنها إلَّا وقد كادوا يُلتهِمونَ الأواني والبُسطَ" (86).

ومع قلةِ الوقفاتِ أمامَ هذهِ العاداتِ والتقاليدِ؛ فإنَّه جدُّ مهمَّةٍ في فهمِ طبائعِ أهلِ هذهِ المُدن التي ارتحل إليها الرَّحالةُ، وخصوصاً حينَ تُمرَّجُ بمُفرداتِ الثَّقافةِ الأخرى؛ كالثَّقافةِ الدينيَّةِ. وعلى كُلِّ حالٍ فهي مُكوِّنٌ لا يُمكنُ الاستغناء عنه في إدراكِ البنى والسياقاتِ التي يحفلُ بها النُّصُ الرُّحليُّ.

النتائج والتوصيات

أولاً - النتائج:

(1) تُمثِّلُ نصوصُ أدبِ الرَّحلاتِ، وبخاصَّةِ الروائيَّةِ المُعاصرةِ أحدَ أهمِّ الفُنونِ السَّرديَّةِ التي امتدَّتْ أصولُها القديمةُ، وجذورها العميقةُ في أدبنا العربيِّ، هذا إلى جانبِ قيمتها الأدبيَّةِ الخالصةِ، ومما يُميِّزُها عن الأخيرةِ كونُها تُمثِّلُ ما يشبهُ الوثائقَ التَّاريخيَّةَ والجغرافيَّةَ والإثنوغرافيَّةَ لِلبلدانِ التي يمرُّ بها الرَّحالةُ/ بطلُ الروايةِ؛ كمُشاهدِ الوصفِ والسَّرْدِ والأحداثِ التي تكشفُ طبائعَ الثَّقافاتِ والمُجتمعاتِ المُختلفةِ.

(2) اهتمَّتْ روايةُ (مَسرى الغرائيق في مدنِ العقيق) للروائيَّةِ السُّعوديَّةِ أُميمةِ الحَميسِ اهتماماً بوصفِها روايةً رحليَّةً، بالوقوفِ المُتمهِّلِ أمامَ حيثياتِ الأماكنِ؛ لكونها أحدَ العناصرِ الرِّئيسةِ في البنيةِ السَّرديَّةِ الروائيَّةِ.

(3) تنوَّعَ وصفُ السَّارد/مَزيدُ الحَنفيِّ المُدنَ التي شغلتْ رحلتهُ من وصفِ ظاهريِّ يتفنَّنُ فيه بوصفِ مظاهرِ العُمرانِ وما يعكسُهُ من تَحَضُّرٍ على مُستوى الشَّكلِ إلى

وصف تأثري ثقافي يظهر فيه تأثره بمعالم المدينة التي يصفها ثقافياً وإنسانياً، وغالباً ما يأتي وصفه الأول/ التوثيقيّ مُكتفياً بالتركيز على الملامح الظاهرة للمدينة دون أن نلاحظ في لغته نواح تأثريّة بتلك الملامح، وكأنّها كتابة توثيقية أو وثائقية.

(4) عكست رحلة مزيد الحنفي الواقع العربيّ ثقافياً واجتماعياً ودينياً وسياسياً في فترة مهمة جداً من تاريخنا العربيّ القديم المنعوت بزبدة الحقب، واستطعننا من خلال وصفه وسرده وشخصياته، وما ساقه من أحداث الوقوف على جوانب مهمة تمكنا من فهم الأنا العربيّة لنفسها، وفهمها للآخر، وقدرتها على التعايش مع الآخر المختلف، وتنوّع ترثنا الثقافي بما يسمح بمزيد من التسامح والتعايش، والتهوؤ، وجاء سرد الرواية منتقداً بعض سلبات هذه المجتمعات على اختلاف عقائدها ومذاهبها؛ بما يشي بعدم وجود فوارق حادة بينها، وأنها تكاد تتشابه سلباً وإيجاباً، وهو ما جعلها تتعايش في سلام بنى حضارة مميزة ظلت باقية طيلة هذه القرون، مع التأكيد على الفوارق الدقيقة بينها.

(5) ظهر الجانب الخاص بالعادات والتقاليد أقلّ نسبياً من باقي مفردات الحياة الثقافية، وهو أمر معتاد في الأدب الرحلي؛ فنادرًا ما نُفرد له مساحات في الروايات الرحلية، ومع ذلك فهو جد مهم في رسم تفاصيل الخريطة الثقافية للمدن التي مرّ بها بطل رواية الخميس؛ لكونه جزءاً أصيلاً من بنية الثقافة العامة للمجتمعات، ولم يخل هذا الجانب من نظرات نقدية، كما حدث في جانب الثقافة الرسمية.

(6) لم يقصد السارد في وصف بنية الثقافة المجتمعية لمُدن العقيق، وصفها لذاتها، بل جاءت مُرتبطة بغيرها من الروابط الثقافية الأخرى، وبخاصة الدينيّة والديموغرافية، وغيرها من الجوانب التي تتفاعل معها لتكوين صور تحمل أيديولوجيا السارد.

ثانياً – التوصيات

توصي الدراسة بالاهتمام بمزيد من الدراسات التي تهتم بالبنية السردية لنصوص أدب الرحلات، لاسيما النصوص السردية الروائية المعاصرة؛ لما فيها من اختلافات، تميزها عن غيرها في البنى السردية، وخصوصاً من حيث عنصر المكان والشخصيات، كما أنّها من أهم النصوص السردية، وأميزها التي تحفل بصور تجليات الأنا والآخر، والتنافس الثقافي بين الأمم.

الهوامش:

(1) حمداوي، جميل: نظرية الأجناس الأدبية، بيروت: أفريقيا الشرق، 2015، ص19.

- (2) نواب، عواطف محمّد يوسف: كتب الرّحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)، الرياض: دار الملك عبد العزيز، 2008، ص7، و: المنوني، محمّد: من حديث الركب المغربي، تطوان: مطبعة تطوان، 1953، ص7.
- (3) مراد، بركات: الإنسان والرّحلة والاستكشاف، جدة: كنوز المعرفة، 2012، ص10.
- (4) حليفي، شعيب: الرّحلة في الأدب العربي، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2002، ص68.
- (5) المودن، عبد الرّحيم: أدبيّة الرّحلة، الدّار البيضاء: دار الثقافة، 1996، ص57.
- (6) وهبة، مجدي- المهندس، كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت: مكتبة لبنان، ص77.
- (7) عبدالعال، محمد سيد: تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا (تحقيق ودراسة نقدية مقارنة)، القاهرة: مكتبة الآداب، 2018، ص9.
- (8) ابن حميد، أحمد بن محمّد: الرّحلة الأردنية (خطرات ومشاهدات) بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2014، ص9.
- (9) نظرية الأجناس الأدبيّة، ص47.
- (10) تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروس، ص27.
- (11) حامد، عبد الله: نقد الذات ونقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث، الأحساء: نادي الأحساء الأدبي، 2015، ص38 و: حسين، محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976، ص335.
- (12) الإنسان والرّحلة والاستكشاف، ص13.
- (13) شيخو، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب: مجاتي الأدب في حدائق العرب، ج 5، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1913، ص289.
- (14) قنديل، فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة: مكتبة الدار العربية، 2002، ص419.
- (15) أدب الرحلة في التراث العربي، ص488.
- (16) الصّورولوجيا: مبحث في الأدب المقارن يهتم برصد الصّور التّجافية التي تكونها الشّعوب عن بعضها وترصدها، وتقرن بينها. ذاكر، عبد النبي: الصّورة.. الأنا.. الآخر، المغرب: وزارة الثقافة، سلسلة شرفات، منشورات الزّمن، 2014، ص27، 26، و: ذاكر، عبد النبي: إسبانيا والمغرب (نظرات متقاطعة)، المغرب: وزارة الثقافة، سلسلة شرفات، منشورات الزّمن، 2014، ص11.
- (17) تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، ص19.
- (18) هيكل، أحمد: تطور الأدب الحديث في مصر، ط6، القاهرة: دار المعارف، 1994، ص39.
- (19) تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، ص12-13.
- (20) تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، ص15.
- (22) الخميس، أميمة: مسرى الغرائب في مدن العقيق، ط2، بيروت: دار السّاقى، 2019، ص127.
- (22) ضيف، شوقي: الرّحلات، ط4، القاهرة: دار المعارف، 1987، ص5، رمضان: أحمد، الرّحلة والرحالة المسلمون، جدة: دار البيان للطباعة والنشر، ص13، و: الشامي: صلاح الدين، الرّحلة عين الجغرافية المبصرة، ط2، الإسكندرية: منشأة المعارف، 1999، ص14.
- (24) النّصير، ياسين: الرواية والمكان، بغداد: دار الشّئون التّجافية العامّة، 1980، ص18.
- (25) بوخاتم، مولاي علي: مصطلحات النقد السيميائي، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2005، ص276.

- (26) مسرى الغرائيق في مدن العقيق ص7.
- (27) مسرى الغرائيق في مدن العقيق ص7.
- (28) مسرى الغرائيق في مدن العقيق ص8.
- (29) يقطين، سعيد: الكلام والخبر. مقدمة في السرد العربي، ط1، المغرب: المركز الثقافي العربي، 1997، (ص19).
- (30) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص11-12.
- (31) بوزياني، خالد: الصورة الأدبية وخصائصها اللغوية بين البلاغيين والأسلوبيين (رسالة دكتوراه)، الجزائر: كلية الآداب واللغات جامعة الجزائر، 2007، ص19.
- (32) ابن، خرداذبة: المسالك والممالك، لندن: مطبعة بريل، 1889، ص97.
- (33) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص193.
- (34) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص308.
- (35) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص194.
- (36) بجيت، كريم: الرحلة وصورة الآخر، الرباط: دار الأمان، 2013، ص159.
- (37) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص433.
- (38) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص196.
- (39) بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي: الفضاء.. الزمن.. الشخصية، ط1، المغرب: المركز الثقافي العربي، 1990، ص60.
- (40) الفيصل، سمر روجي: بناء المكان، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد 306، 1996، ص13.
- (41) دراز، سيزا قاسم: بناء الرواية. دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص80.
- (42) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص196-197.
- (43) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص198.
- (44) أبو شريفة، عبد القادر: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ط4، القاهرة: دار الفكر العربي، 2008، ص24.
- (45) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص198.
- (46) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص198.
- (47) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص193.
- (48) الجسرة: الناقاة العظيمة الماضية. والكفل: مركب للرجال يؤخذ من كساء، فيعقد طرفاه فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره مما يلي العجز. القلال: جمع قلة، وهي الجرة العظيمة.
- (49) الشنقيطي، حمد: ديوان الهذليين، ج1، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965، ص40، و: الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج5، ط2، بيروت: دار صادر، 1995، ص59.
- (50) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص441-440.
- (51) ابن حماد، أحمد بن فضال بن العباس بن راشد: رحلة ابن فضال إلى بلاد الترك والروس والصفالية، تحقيق: شاكرا لعيبي، أبو ظبي: دار السويدي، 2003، ص87.
- (52) الخميس، أميمة: السرد أرض أنثوية بامتياز، صحيفة الشرق الأوسط، العدد (14630) تاريخ النشر 2018 / 12 / 18.
- (53) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص200.
- (54) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص200.

- (55) الهروط، بلال سالم: صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية (رسالة دكتوراه) الأردن: جامعة مؤتة، 2008، ص98.
- (56) كراد، موسى: مظهرات الخطاب الديني الأصولي في رواية (الغيث) لمحمد ساري، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي الجزائر: العدد 11، 2017، ص342.
- (57) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص7.
- (58) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص33.
- (59) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص195.
- (60) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص206.
- (61) فضل، صلاح: أساليب السرد في الرواية العربية، ط1، القاهرة: دار الثقافة، 2003، ص17.
- (62) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص431.
- (63) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص11.
- (64) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص37.
- (65) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص42.
- (66) الجزائري، نعمة الله: رياض الأبرار، ج 1، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ص266 - 268.
- (67) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص11.
- (68) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص36.
- (69) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص41.
- (70) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص41.
- (71) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص41.
- (72) السّروي، صلاح: سؤال الهوية في الرواية العربية. جدل الأنا والآخر، مجلة أدب ونقد، القاهرة: العدد 19، 2001، ص20.
- (73) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص284.
- (74) المراكشي، ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س كولان - إ. ليفي بروفنسال، ج 1، ط3، بيروت: دار الثقافة، 1983، ص124.
- (75) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص43-44.
- (76) ضيف، شوقي: العصر العباسي، ج3، ط1، القاهرة: دار المعارف، 1960، ص17.
- (77) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص100.
- (78) شرابي، يسمينه: الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري (رسالة ماجستير) الجزائر: كلية الآداب واللغات، جامعة مهند أولحاج، 2013، ص63.
- (79) بن نبي، مالك: مشكلة الثقافة، ط4، دمشق: دار الفكر، 1984، ص19.
- (80) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص17.
- (81) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص49.
- (82) نميش، دليّة: أدب الرحلات ودوره في التواصل بين الحضارات: رحلة ابن جبير نموذجاً (رسالة ماجستير) الجزائر: كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، 2015، ص8.
- (83) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص13.
- (84) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص37.
- (85) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص13.

(86) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص36.

(87) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص47.

(88) مسرى الغرائيق في مدن العقيق، ص47.

قائمة المصاير والمراجع

أولاً المصاير:

- مسرى الغرائيق في مدن العقيق، أميمة الخميس، دار الساقى، بيروت، ط2، 2019م.

ثانياً: المراجع:

- (1) أدب الرحلة عند العرب، حسين محمود حسين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م.
- (2) أدب الرحلة في التراث العربي، فؤاد قنديل، مكتبة الدار العربية، القاهرة، 2002م.
- (3) أدبيّة الرحلة، عبد الرحيم المودن، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1996م.
- (4) أساليب السرد في الرواية العربية، صلاح فضل، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 2003م.
- (5) إسبانيا والمغرب (نظرات متقاطعة) عبدالنبي ذاكر، المملكة المغربية، وزارة الثقافة، سلسلة شرفات، منشورات الزمن، 2014م.
- (6) الإنسان والرحلة والاستكشاف، بركات مراد، جدة، كنوز المعرفة، 2012م.
- (7) بناء الرواية.. دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، سيزا قاسم دراز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.
- (8) بناء المكان، سمر روجي الفيصل، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، 1996م، العدد (306).
- (9) بنية الشكّل الروائي: الفضاء - الزمن - الشخصية، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1990م.
- (10) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة - بيروت، ط3، 1983م.
- (11) تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، دار المشرق - بيروت، ط3.
- (12) تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا (تحقيق ودراسة نقدية مقارنة)، محمد سيد علي عبدالعال، القاهرة، مكتبة الآداب، 2018م.

- (13) تطوّر الأدب الحديث في مصر، أحمد عبد المقصود هيكّل، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1994م.
- (14) تمظهرات الخطاب الديني الأصولي ي رواية (الغيث) لمحمد ساري، تأليف: موسى كراد، مجلة علوم اللغة العربيّة وآدابها – جامعة الوادي.
- (15) ديوان الهذليين، الشعراء الهذليون، ترتيب وتعليق: محمّد محمود الشنقيطي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1385 هـ - 1965 م، 40/1، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر – بيروت، ط2، 1995م.
- (16) الرّحلات، شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط4، 1987م.
- (17) رحلة ابن فضلان إلى بلاد التّرك والرّوس والصّقالبة، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حمّاد (ت 310هـ)، تحقيق: شاكّر لعبيبي، دار السّويدي، أبو ظبي، 2003م.
- (18) الرّحلة عين الجغرافيّة المبصرة، صلاح الدين الشّامي، الإسكندريّة، منشأة المعارف، ط2، 1999م.
- (19) الرّحلة في الأدب العربيّ، شعيّب حليفيّ، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2002م.
- (20) الرّحلة والرّحالة المسلمون، أحمد رمضان، جدة، دار البيان للطباعة والنّشر، (د.ت).
- (21) الرحلة وصورة الآخر، كريم بجيت، الرّباط، دار الأمان، 2013م.
- (22) الرّواية والمكان، لياسين النّصير، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، 1980م.
- (23) رياض الأبرار، نعمة الله الجزائري، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، 2006م.
- (24) سؤال الهوية في الرّواية العربيّة: جدل الأنا والآخر، صلاح السّروي، مجلة أدب ونقد – القاهرة، العدد (19)، 2001م.
- (25) السّرد أرض أنثويّة بامتياز، أميمة الخميس.. صحيفة الشّرق الأوسط، 18/ 12/ 2018م، عدد (14630).
- (26) صورة الآخر في أدب الرّحلات الأنطولوجيّة (رسالة دكتوراه)، بلال سالم الهروط، جامعة مؤتة، 2008م.
- (27) الصّورة الأدبيّة وخصائصها اللّغويّة بين البلاغيّين والأسلوبيين (دكتوراه)، خالد بوزياني، كليّة الأداب واللّغات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2007م.
- (28) الصّورة...الأنا، الآخر، عبد النبي ذاكر، المملكة المغربيّة وزارة الثقافة، سلسلة شرفات، منشورات الزّمن، 2014م.

- (29) العصر العباسي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1960هـ
- (30) في الأدب الحديث، عمر الدسوقي، دار الفكر العربي، 1420هـ/ 2000م.
- (31) قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، حسن النعمي، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1435هـ/ 2013م.
- (32) كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)، عواطف بنت محمد يوسف نواب، الرياض، دار الملك عبد العزيز، 2008م.
- (33) الكلام والخبر: مقدمة في السرد العربي، سعيد يقطين، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997م.
- (34) مجاني الأدب في حقائق العرب، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مطبعة الأباء اليسوعيين- بيروت، 1913م.
- (35) مدخل إلى تحليل النص الأدبي، عبد القادر أبو شريفة، دار الفكر العربي، ط4، 2008م.
- (36) المسالك والممالك، ابن خرداذبة، مطبعة بريل، ليدن، 1889م.
- (37) مصطلحات النقد السيميائي لمولاي علي بوخاتم، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2005م.
- (38) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.
- (39) مشكلة الثقافة لمالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط4، 1984م.
- (40) من حديث الركب المغربي، محمد المنوني، تطوان، مطبعة تطوان، 1953م.
- (41) الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري (رسالة ماجستير)، يسمينه شرابي، كلية الآداب واللغات - جامعة مهند أولحاج، الجزائر، 2013م.
- (42) نظرية الأجناس الأدبية، جميل حمداوي، بيروت، أفريقيا الشرق، 2015م.
- (43) نقد الذات ونقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث، د. عبد الله حامد، الأحساء، نادي الأحساء الأدبي، دار الكفاح للنشر والتوزيع، 2015م.